الفصل الأول

العلماء والحياة السياسية بمصر والشام فى القرن التاسع الهجرى

obeikandl.com

نقاط الفصل الأول

أولًا : العلماء والسياسة الداخلية لمصر والشام :

(١) العلماء وتداول السلطة فى النظام السياسى المملوكى .

(٢) اتجاهات العلماء إزاء الأداء السياسى للسلطة المملوكية وتشمل :

أ ـ العلماء والاتصال بالسلطة « العلماء وجهاد السلطة باللسان ، العلماء وثورات المصريين والشاميين ضد الولاة والنواب ، العلماء وخلع السلطان المملوكى » .

ب ـ العلماء واعتزال السلطة المملوكية .

ثانيًا : العلماء والسياسة الخارجية لمصر والشام :

أ ـ العلماء والجهاد بالقلم .

ب ـ العلماء والجهاد بالسيف .

جـ ـ العلماء والسفارات .

obeikandl.com

المحور الأول : العلماء وتداول السلطة فى النظام السياسى المملوكى

إِنَّ تأسيس السلطة الحاكمة فى الإسلام يقوم على أساس الشورى[١] ، وذلك ما حدث تاريخيًا عهد الخلفاء الراشدين[٢] ، ثم ظهرت عقب حِقبة الراشدين نظام ولاية العهد[٣] ، ذلك النظام الذى كان افتئاتًا على حق الرعيّة ، حيث اغتصب حقها فى اختيار حاكمها[٤] .

ولمّا كانت تلك السلطة المُتغلِبة تشعُر بأنها جاءت دون إرادة محكوميها ، فقد اصطنعت قوى عسكرية تحميها داخليًا من هؤلاء المحكومين من ناحية ، ومن الطامعين فى السلطة من ناحية أخرى[٥] .

---

(١) **الشورى** : « لغة » مشتقة من كلمة شوّر ، وتأتى لمعانى عدة ، تدور فى معظمها حول استخراج الشىء المفيد من موضعه ، وفى « الاصطلاح » استطلاع الرأى من ذوى الخبرة فيه للتوصل إلى الصواب ، انظر : خالد إسماعيل « الشورى جذورها التاريخية وتطبيقاتها فى عصر النبوة والخلافة الراشدة » ص ٩١، مقال بدورية التجديد ، عدد (١٠) ، قطر ، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م .

(٢) الشيخ محمد رشيد رضا « الخلافة » ص ٢١، دار الزهراء للإعلام العربى ، القاهرة ، « د.ت » ، د. محمد عمارة « نظرية الخلافة » ص ٤٠، دار المعارف ، تونس « سلسلة موسوعة الحضارة العربية الإسلامية » رقم (١٠) ، د. صبحى عودة « السلطة والحرية فى النظام الإسلامى » ص ٣٤، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٨٢م .

(٣) وذلك ما أوضحه ابن الخطيب الأندلسى « ت ٧٧٦هـ » فى كتابه « إعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام » ، حيث رصد نظام ولاية العهد فى التاريخ الإسلامى بدءًا بالدولة الأموية وانتهاءًا بالدولة المرينية بالأندلس التى كان معاصرًا لها ، مطوفًا عبر ذلك بالدولة الإسلامية التى شهدها التاريخ الإسلامى شرقًا وغربًا ، كالدولة الإخشيدية ، والفاطمية ، والأيوبية ، والمملوكية ، ولمزيد من الإيضاح ، انظر : د. رابح عبد الله المغراوى « قضية بيعة الصبى بين الفقه والتاريخ من خلال كتاب « إعمال الأعلام لابن الخطيب » ص ٢٨، ٦٣، حولية الآداب والعلوم الاجتماعية ، عدد (٢٠٠) ، جامعة الكويت ، ٢٠٠٣م .

(٤) د. عبد الله جمال الدين « نظام الدولة فى الإسلام » ص ٢٩٣، دار الصحوة ، القاهرة ، ط ٣ (١٩٩٨م) ، د. ظافر القاسمى « نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ » ص ٢٠٦، دار النفائس ، بيروت ، ١٩٨٥م ، الشيخ محمد رشيد رضا « الخلافة » ص ٤١.

(٥) لمزيد من الإيضاح عن تلك القوى التى استعان بها الحكام فى العصور الإسلامية المتعاقبة بعد عهد الراشدين ، انظر : د. أحمد مختار العبادى « قيام دولة المماليك الأولى فى مصر والشام » ص ٢١،=

ولقد اختلفت تلك القوى من عصر إلى آخر ، وقد استطاعت بعض تلك القوى ـ التى اصطنعها أولئك الحكام المُتغلِبون ـ الاستئثار بالحكم دونهم ، وذلك ما ظهر واضحًا فى تجربة المماليك الذين اغتصبوا كرسى الحكم بمصر والشام من أسيادهم الأيوبيين[1] .

وبوصول المماليك إلى كرسى الحكم بمصر والشام ـ (٦٤٨هـ/١٢٥٠م) ـ ساروا على سُنّة الدول التى سبقتهنم ، من حيث كون التغلُب والقوة هما عماد عملية تداول السلطة ، وذلك ما سيعرض الباحث له فى السطور التالية مستكشفًا « دور العلماء » إزاء قانون التغلُب والقوة الذى كانت عملية تداول السلطة بالدولة المملوكية تتم بمقتضاه[2] .

إن عملية تداول السلطة فى ظل النظام السياسى المملوكى ـ كما توضح المصادر التاريخية ـ تمر بطورين حتى تتم ، وللعلماء فى كل طور دورٌ ما أشار إليه المؤرخون .

= مؤسسة شباب الجامعة ، الإسكندرية ، « د. ت » ، د. محمد محمود « المماليك المصريون الذين لمعوا فى ميدان الفكر » ص ١٠، دكتوراة ، دار العلوم ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٩م ، د. محمد محمد أمزيان « دراسة حول التطور السياسى لمؤسسة الخلافة » ص ٧٨، مقال بدورية آفاق الثقافة والتراث ، عدد (٣٨) ، الكويت ، ٢٠٠٢م .

(١) د. أحمد مختار العبادى « قيام دولة المماليك » ص ٨٨، د. عصام شبارو « السلاطين فى المشرق العربى » ص ١٣٨، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٩٤م .

(٢) على الرغم من كثرة الدراسات ـ قديمًا وحديثًا ـ التى تناول قضية التغلُب والقوة كآلية يتم من خلالها تداول السلطة فى النظام السياسى المملوكى ، إلا أنها لم تشر إلى دور العلماء سلبًا أو إيجابًا تجاه تلك المسألة ، ومن تلك الدراسات على سبيل المثال :

أ ـ د. عبد المنعم ماجد « التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك فى مصر » ص ١٠٩، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٨٨م .

ب ـ د. إبراهيم طرخان « مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة » ص ١٠، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٠م .

جـ ـ د. قاسم عبده قاسم « عصر سلاطين المماليك » ص ٤٤، دار عين للنشر ، القاهرة ، ٢٠٠٣م .

د ـ د. علاء طه « عامة القاهرة فى عصر سلاطين المماليك » ص ١٩، دار عين للنشر ، القاهرة ، ٢٠٠٣م .

هـ ـ د. على إبراهيم « نظم الحكم فى دولة المماليك الأولى » ص ٤٤، دكتوراة ، آداب القاهرة ، ١٩٤٢م .

و ـ د. عدلى حمد « انهيار وسقوط دولة المماليك » ص ٦٢، دكتوراة ، آداب الإسكندرية ، ١٩٧٨م .

الطور الأول : أنَّ السلطان عند شعوره بدنو أجله ـ وهو على فراش الموت ـ يستدعى أمراء دولته والعلماء[١] ، ويعهد لابنه بولاية العهد فيوافقه الأمراء والعلماء ، ومن ذلك ما تذكره المصادر التاريخية فى عام ٨٢٤هـ/١٤٢١م ، حيث استدعى السلطان ططر[٢] ـ حينما شعر بمرض الموت ـ أمراء دولته والعلماء ، فبايعوا ولده محمد[٣] بولاية العهد[٤] .

ولقد تكرر المشهد السابق من السلطان برسباى[٥] عام ٨٤١هـ/١٤٣٧م[٦] ، والسلطان إينال[٧] عام ٨٦٥هـ/١٤٦٠م[٨] .

---

(١) المقصود علماء مصر حيث لم يكن لعلماء الشام رأى فى ولاية العهد التى يعقدها سلطان مصر لابنه « الباحث » .

(٢) **ططر** : تولى منصب السلطنة ٢٩ شعبان ٨٢٤هـ وظل سلطانًا حتى وفاته ٤ ذى الحجة عام ٨٢٤هـ ، انظر : ابن شاهين « عبد الباسط خليل ت ٩٢٠هـ » « نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين » ص ١٢٩ ، تحقيق محمد كمال الدين ، مكتبة الثقافة الدينية ، ١٩٨٧م .

(٣) محمد بن ططر : تولى عرش السلطنة ٤ ذى الحجة عام ٨٢٤هـ ، وخُلع ٢ ربيع الآخر عام ٨٢٥هـ ، انظر : ابن شاهين « نزهة الأساطين » ص ١٣٠ .

(٤) المقريزى « تقى الدين أحمد ت ٨٤٥هـ » « السلوك فى معرفة دول الملوك » ح ٤ ص ٥٩٠ ، تحقيق د. سعيد عاشور ، دار الكتب المصرية ، ١٩٧٠م ، ابن الصيرفى « الخطيب الجوهرى « ت ٩٠٠هـ » « نزهة النفوس والأبدان » ح ٢ ص ٥١٦ ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٧٠م ، ابن تغرى « جمال الدين يوسف ت ٨٧٤هـ » « النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة » ح ١٤ ص ٤٩ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٢م .

(٥) **برسباى** : تولى عرش السلطنة عام ٨٢٥هـ حتى وفاته عام ٨٤١هـ ، انظر : ابن شاهين « نزهة الأساطين » ص ١٣١ .

(٦) المقريزى « السلوك » ح ٤ ص ١٠٤٥ ، ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٣ ص ٤٢٢ ، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٥ ص ٣ .

(٧) **إينال** : تولى عرش السلطنة عام ٨٥٧هـ ، واستمر فى منصبه حتى وفاته عام ٨٦٥هـ ، انظر : ابن شاهين « نزهة الأساطين » ص ١٣٧ .

(٨) ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٦ ص ١٨٩ ، ابن إياس « بدائع الزهور فى وقائع الدهور » ح ٢ ص ٣٦٩ ، تحقيق د. محمد مصطفى ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م ، د. نبيل محمد « وثيقة عهد السلطان المؤيد أحمد بن إينال : دراسة وتحقيق » ص ٦ ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ١٩٨١م .

الطور الثانى : يبدأ عقب تشييع جثمان السلطان المملوكى حيث يجتمع الأمراء ليبايعوا ولى العهد ـ ابن السلطان ـ بسلطنة مصر والشام ، مثلما حدث عندما بايع الأمراء والعلماء محمد ابن ططر[١] بالسلطنة عقب وفاة أبيه عام ٨٢٤هـ/١٤٢١م[٢] ، ولقد تكرر المشهد السابق عام ٨٤١هـ/١٤٣٧م عندما بايع الأمراء والعلماء العزيز بن برسباى[٣] عقب وفاة أبيه[٤] .

ولأن المماليك كما تصورهم المصادر التاريخية لا يعترفون بمبدأ ولاية العهد[٥] ، فيثير هؤلاء الأمراء « الفتن »[٦] من أجل كرسى الحكم ، ومن ذلك ما تذكره المصادر التاريخية ، أن المماليك ـ الذين بايعوا العزيز بن برسباى بالسلطنة فى ١٣ شهر ذى الحجة من عام ٨٤١هـ ـ أثاروا فتنة كبيرة فى ١٢ صفر من عام ٨٤٢هـ/١٤٣٨م ، حيث انقسم المماليك إلى حزبين ، حزب التف حول العزيز بن برسباى ، ويمثل ذلك الحزب مماليك برسباى[٧] ـ الأب – ، أما الحزب الآخر التف حول الأمير جقمق[٨] ، واستمرت رحى الحرب مستعرة

---

(١) محمد بن ططر : انظر : ص ١٠.

(٢) المقريزى « السلوك » ح ٤ ص ٦٠٧، ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٣ ص ٥، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٤ ص ٧٨.

(٣) العزيز بن برسباى : يوسف بن برسباى ، تولى منصب السلطنة ١٣ ذى الحجة ٨٤١هـ ، وتم خلعه ١٩ ربيع الأول ٨٤٢هـ ، انظر : ابن شاهين « نزهة الأساطين » ص ١٣٣.

(٤) المقريزى « السلوك » ح ٤ ص ١٠٨٦، ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٤ ص ١٧، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٥ ص ٣٢.

(٥) كان المماليك يوافقون السلطان بتولية ابنه كسبًا للوقت حتى ينجلى الموقف السياسى بعد موت السلطان فيظهر أمير قوى يستطيع كسب تأييد معظم المماليك فيستحوذ على كرسى الحكم ، أى كنوع من الهدنة ، انظر : د. إبراهيم طرخان « مصر فى عصر دولة المماليك » ص ١٠، د. قاسم عبده قاسم « عصر سلاطين المماليك » ص ٤٥، د. سعيد عاشور « العصر المماليكى فى مصر والشام » ص ١٥٨، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط ٣ (١٩٩٤م) .

(٦) **الفتن** : ذلك هو الاصطلاح الذى أطلقه مؤرخو العصر المملوكى على ذلك الصراع المسلح من أجل كرسى الحكم « الباحث » .

(٧) برسباى : انظر : ص ١٠.

(٨) جقمق : تولى عرش السلطنة ١٩ ربيع الأول ٨٤٢هـ ، وظل على عرش مصر حتى وفاته عام ٨٥٧هـ ، انظر : ابن شاهين « نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين » ص ١٣٦.

obeikandi.com

بينهما لمدة خمسة أيام ـ عانى المصريون خلالها أشد المعاناة – ، وانتهى الأمر فى ١٧ صفر بتغلُب الأمير جقمق وتوليه السلطنة ، وسُجِن العزيز بن برسباى[١] .

ولقد تكرر المشهد السابق من الأمير إينال[٢] ضد ولى العهد عثمان بن جقمق[٣] عام ٨٥٧هـ/١٤٥٣م[٤] ، والأمير خشقدم[٥] ضد ولى العهد أحمد بن إينال[٦] عام ٨٦٥هـ/ ١٤٦٠م[٧] .

ولكن ما هو دور العلماء إزاء تلك الفتن التى أثارها المماليك بمصر؟

لقد تحدث مؤرخو العصر المملوكى بإسهابٍ عن تلك الفتن، فبينوا ميزان القوى العسكرية بين الفريقين المتصارعين، ونقلوا مشاهد حيّة لتلك المعارك التى نشبت بينهما، وتحدثوا عن تلك المفاوضات التى كانت تتم بينهما من أجل وقف القتال ...إلخ .

---

(١) المقريزى « السلوك » ح ٤ ص ١٠٧٣ ـ ١٠٧٨، ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٣ ص ٤٣٧ ـ ٤٤٢، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٥ ص ١٤، ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٢ ص ١٩٤.

(٢) إينال : انظر : ص ١٠.

(٣) عثمان بن جقمق : تولى منصب السلطنة ١١ محرم ٨٥٧هـ، وخُلِع بعد ٤٣ يوم، انظر : ابن شاهين « نزهة الأساطين » ص ١٣٦.

(٤) البقاعى « إبراهيم بن عمر « ت ٨٨٥هـ » » « إظهار العصر » ، مخطوطة بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية برقم (٨٩٢ تاريخ) ، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٦ ص ١٤، ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٢ ص ٣٠٧.

(٥) خشقدم : تولى عرش السلطنة ١٨ رمضان عام ٨٦٥هـ، وظل على العرش حتى وفاته عام ٨٧٢هـ، انظر : ابن شاهين « نزهة الأساطين » ص ١٤٠.

(٦) أحمد بن إينال : تولى عرش السلطنة ٨ ربيع الأول عام ٨٦٥هـ، وخُلِع ١٨ رمضان عام ٨٦٥هـ، انظر : ابن شاهين « نزهة الأساطين » ص ١٣٩.

(٧) البقاعى « إظهار العصر » ، ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٢ ص ٣٧٨، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٦ ص ٢٢٢.

obeikandi.com

ولكن جلّ المؤرخين مع رصدهم لدقائق تلك الفتن لم يذكروا للعلماء أى دور لهم فى تلك الفتن جميعها منذ بدايتها وحتى نهايتها ـ وذلك فيما اطلعت عليه من مصادر ـ حيث كان العلماء ـ كما يوضح المؤرخون ـ يظهرون على مسرح الحياة السياسية عقب انتهاء الفتنة مباشرة، وذلك عندما يستدعيهم الأمير المنتصر ليبايعوه سلطانًا على مصر والشام، وكان العلماء يبايعونه، ومن ذلك ما حدث عام ٨٤٢هـ/١٤٣٨م، عندما تغلب الأمير جقمق[١] على السلطان العزيز بن برسباى[٢]، حيث استدعى جقمق العلماء ـ وعلى رأسهم العالِم سعد الدين الديرى[٣] والعالم ابن حجر العسقلانى[٤] ـ ليبايعوه سلطانًا على مصر والشام فبايعوه[٥].

ولقد تكرر المشهد السابق من العلماء بعد انتصار الأمير خشقدم[٦] عام ٨٦٥هـ/١٤٦٠م على السلطان أحمد بن إينال[٧]، حيث بايع العلماء ـ وعلى رأسهم العالِم علم الدين

---

(١) جقمق: انظر: ص ١١.

(٢) العزيز بن برسباى: انظر ص ١١.

(٣) سعد الدين الديرى: سعد بن محمد الديرى، تفقه بشيوخ عصره، حتى صار رأس المذهب الحنفى فى عصره، ولى قضاء مصر، وأحبه الناس لعدله، اشتهر بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إزاء السلطة المملوكية، توفى ٨٦٧هـ، انظر: ابن تغرى «النجوم الزاهرة» ح ١٦ ص ٢٨٥، السخاوى «شمس الدين بن محمد «ت ٩٠٢هـ»» «الضوء اللامع فى أهل القرن التاسع» ح ٤ ص ٢٥٠، دار الجيل، بيروت، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م.

(٤) ابن حجر العسقلانى: أحمد بن على، تفقه بشيوخ عصره، برع فى علم الحديث، حتى لُقب بأمير المؤمنين فى الحديث النبوىّ، ولى قضاء مصر على مذهب الشافعية لمدة تزيد عن إحدى وعشرين عام، أحبه المصريون، توفى ٨٥٢هـ، انظر: ابن تغرى «المنهل الصافى» ح ٢ ص ١٧، ابن الحمصى «شهاب الدين أحمد «ت ٩٣٤هـ»» «حوادث الزمان ووفيات الشيوخ والأقران» ح ١ ص ٩٠، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٢م، السخاوى «الضوء اللامع» ح ٢ ص ٣٨.

(٥) ابن الصيرفى «نزهة النفوس» ح ٤ ص ١٨، المقريزى «السلوك» ح ٤ ص ١٧٠٨، ابن إياس «بدائع الزهور» ح ٢ ص ١٩٧.

(٦) خشقدم: انظر: ص ١٢.

(٧) أحمد بن إينال: انظر: ص ١٢.

البلقينى[١] ، والعالم سعد الدين الديرى[٢] ـ الأمير خشقدم سلطانًا على مصر[٣] .

وهكذا يستنبط من إغفال المؤرخين ـ رغم رصدهم الدقيق للفتن ـ ذكر العلماء أثناء تلك الفتن ، أنَّ علماء مصر آثروا اعتزال تلك الفتن ، ورفضوا مساندة أيًّا من الفريقين المتصارعين ، وهذا الرأى يعضده ما ذكره المؤرخون ـ وهم يروون أحداث فتنة الأمير جقمق[٤] عام ٨٤٢هـ/١٤٣٨م ـ أن علماء مصر كانوا يراقبون أحداث الصراع دون القيام بمساندة أيًّا من الفريقين[٥] .

أمّا بلاد الشام :

فكان أمراء الشام يُثيرون الفتن ـ أيضًا ـ عقب وفاة السلطان المملوكى ، حيث كان يقوم أحد أمراء الشام بخلع الطاعة لسلطان مصر ويجمع حوله أمراء الشام استعدادًا لمهاجمة سلطان مصر وخلعه ، ولكن سلطان مصر كان يسارع إلى بلاد الشام للقضاء على هؤلاء الأمراء قبل أن يهاجموه ، وكان سلطان مصر ـ فى الغالب ـ يتغلب على أمراء الشام الثائرين .

ومن ذلك ما ذكرت المصادر التاريخية عام ٨٠٢هـ/١٣٩٩م ، أن الأمير تنم[٦] ـ نائب دمشق[٧]

---

(١) علم الدين البلقينى : صالح بن عمر البلقينى ، تفقه على شيوخ عصره ، درس وأفتى ، وولى قضاء مصر على المذهب الشافعى ، توفى ٨٦٧هـ ، انظر : ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٢ ص ٤٠٠.

(٢) سعد الدين الديرى : انظر : ص ١٣.

(٣) البقاعى « إظهار العصر » ، ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٢ ص ٣٧٧، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٦ ص ٢٣٠.

(٤) جقمق : انظر : ص ١١.

(٥) المقريزى « السلوك » ح ٤ ص ١٠٧٣، ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٣ ص ٤٣٩، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٤ ص ٧٥.

(٦) تنم : تنم بن عبد الله الحسنى ، تولى نيابة دمشق عام ٧٩٥هـ حتى وفاته ٨٠٢هـ ، انظر : ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٢ ص ٥٥.

(٧) **نائب دمشق** : نيابة السلطنة بدمشق من أجلّ نيابات المملكة الشامية ، وأرفعها فى الرتبة ويُعبر عن صاحبها بـ « كافل السلطنة الشريفة بالشام المحروس » ، وهو قائم بدمشق مقام السلطان فى أكثر الأمور المتعلقة =

ـ لم يكد يصل إليه خبر وفاة السلطان برقوق[١] ، حتى أعلن تنم العصيان وخلع الطاعة لسطان مصر فرج بن برقوق[٢] ، ثم شرع فى بسط نفوذه على أرجاء بلاد الشام ، واستطاع فى سرعة مذهلة بسط نفوذه على كافة أرجاء بلاد الشام كحلب[٣] ، والكرك[٤] ، وطرابلس[٥] ، أمّا على الجبهة المصرية فإن السلطان فرج كان يحشد قواته العسكرية للخروج بها للشام ؛ للقضاء على فتنة تنم ، وفى شهر رجب عام ٨٠٢هـ توجه السلطان فرج وجيشه إلى بلاد الشام ، وتلاقى جيش السلطان وتنم بغزة[٦] ودارت بينهما معركة ضارية هُزِم فيها

= بنيابته ، انظر : القلقشندى « أحمد بن عبد الله « ت ٨٢١هـ » » « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » ح ٤ ص ١٨٤، المؤسسة المصرية العامة للتأليف « د. ت » .

(١) برقوق : هو مؤسس دولة المماليك البرجية وأول سلاطينها عام ٧٨٤هـ، توفى منتصف شوال عام ٨٠١هـ، انظر : ابن شاهين « نزهة الأساطين فيمن ولى مصر من السلاطين » ص ١١٥.

(٢) فرج بن برقوق : تولى عرش السلطنة عام ٨٠١هـ، وتم خلعه من السلطنة وقتله عام ٨١٥هـ، انظر : ابن شاهين « نزهة الأساطين » ص ١٢١.

(٣) **حلب** : هى إحدى نيابات بلاد الشام فى العصر المملوكى، وتعزو المصادر تسمية مدينة حلب بذلك الاسم ، لأن سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ كان إذا اشتمل من الأراضى المقدسة ينتهى إلى تلّ قلعة هذه المدينة ، فيضع به أثقاله ، ويبث رعاته ومعهم الأغنام ، وعندئذٍ يعلم الضعفاء بمجيئه فيجتمعون إليه لينالوا من برّه ، والذى منه اللبن الذى يُحلب من الأغنام ، انظر : ابن الحنبلى الحلبى « ت ٧٩١هـ » « الزبد والضرب فى تاريخ حلب » ص ١٥، تحقيق د. محمد التونجى ، مركز المخطوطات والتراث والوثائق ، سوريا ، ط ١ (١٤٠٩هـ/١٩٨٨م) .

(٤) **الكرك** : هى قلعة حصينة فى طرف بلاد الشام من نواحى البلقاء ، وكانت إحدى نيابات الشام فى العصر المملوكى ، انظر : ياقوت الحموى « معجم البلدان » ص ٤٥٣، دار صادر ، بيروت ، ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م .

(٥) **طرابلس الشام** : وردت فى بعض المصادر التاريخية باسم « أطرابلس » بزيادة ألف مهموزة ـ تمييزًا لها عن مدينة طرابلس الليبية ، وطرابلس الشام تقع على شاطئ البحر المتوسط فى منتصف الطريق الساحلى الشرقى للبحر المتوسط بين الأسكندرية فى الشمال وغزة فى الجنوب ، انظر : د. السيد عبد العزيز سالم « طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى » ص ٤، مؤسسة شباب الجامعة ، ١٩٦٦م ، وفاء محمد « ساحل الشام فى العصر المملوكى » ص ٣٥، ماجستير ، آداب عين شمس ، ١٩٩٨م .

(٦) **غزة** : هى إحدى نيابات الشام فى العصر المملوكى ، وهى من الناحية الجغرافية تقع على ساحل البحر =

جيش تنم وتم قتله[١] .

ولقد تكرر المشهد السابق من أمراء الشام عقب وفاة السلطان برسباى[٢] ، حيث اندلعت فتنة الأمير تغرى ورمش[٣] ـ نائب حلب ـ عام ٨٤٢هـ/١٤٣٨م ضد سلطان مصر جقمق[٤] ، ولكن سلطان مصر استطاع القضاء على فتنته وقُتِل تغرى ورمش عام ٨٤٢هـ/ ١٤٣٨م[٥] .

وكذلك تكرر المشهد من أمراء الشام عقب وفاة السلطان إينال[٦] ، حيث اندلعت فتنة الأمير جانم[٧] ـ نائب دمشق ـ عام ٨٦٥هـ/١٤٦٠م ضد سلطان مصر خشقدم[٨] ، ولكن سلطان مصر استطاع القضاء على فتنة جانم وقُتِل عام ٨٦٦هـ/ ١٤٦١م[٩] .

= المتوسط على بعد ميل ـ تقريبًا ـ على طريق المواصلات بين دمشق ومصر ، وهى فى أقصى بلاد الشام من جهة مصر على أطراف الصحراء ، انظر : وفاء محمد « ساحل الشام فى العصر المملوكى » ص ٢٤.

(١) ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٢ ص ٥٤، المقريزى « السلوك » ح ٦ ص ٢٥، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٢ ص ١٦٥، ابن دقماق « إبراهيم بن محمد » « النفحة المسكية فى الدولة التركية » ص ٣٠٧، تحقيق عمر عبد السلام ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط ١ (١٩٩٩م) .

(٢) برسباى : انظر : ص ١٠.

(٣) تغرى ورمش : تولى نيابة حلب عام ٨٣٩هـ ، وكان سيئ السيرة ، ظالمًا ، قُتِل عام ٨٤٢هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٣ ص ٣٥.

(٤) جقمق : انظر : ص ١١.

(٥) المقريزى « السلوك » ح ٤ ص ١١٥، ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٢ ص ٢٠٨، ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٤ ص ١١١.

(٦) إينال : انظر : ص ١٠.

(٧) جانم : تولى نيابة دمشق عام ٨٦٠هـ ، وظل متوليًا حتى قُتِل عام ٨٦٦هـ ، انظر : ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٥ ص ١٠٢، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٣ ص ٦٣.

(٨) خشقدم : انظر : ص ١٢.

(٩) ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٢ ص ٣٨١، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٥ ص ٩٧.

obeikandl.com

ولكن ما هو دور علماء الشام إزاء تلك الفتن؟

كان دور علماء الشام إزاء تلك الفتن الدائرة على أرض الشام مطابقًا لدور علماء مصر من حيث اعتزال تلك الفتن، وذلك ما يمكن الاستدلال عليه بأمرين:

أولاً: إغفال المؤرخين ـ رغم رصدهم الدقيق للفتن ـ ذكر العلماء أثناء تلك الفتن[١].

ثانيًا: ما ذكره مؤرخ حلب سبط ابن العجمى[٢] «ت ٨٨٤هـ»، أنَّ علماء الشام كانوا يعتزلون الفتن الدائرة بين أمراء الشام المتمردين وسلطان مصر[٣].

والآن بعدما تم عرض الدور التاريخى لعلماء مصر والشام فى عملية تداول السلطة فى النظام السياسى المملوكى القائم على التغلُّب، يواجهنا تساؤلين رئيسيين ـ لم تجب المصادر التاريخية التى اطلعت عليها عنهما ـ:

التساؤل الأول: لماذا بايع العلماء ابن السلطان، سواء بولاية العهد فى حياة أبيه[٤]، ثم بالسلطنة عقب وفاة أبيه[٥]، مع أن هذا مخالف لنظرية الإسلام السياسية التى تجعل الشورى ـ وليس ولاية العهد ـ هى السبيل الشرعى لتداول السلطة[٦].

التساؤل الثانى: لماذا اعتزل العلماء الصراع الدائر بين سلطان مصر والثائرين عليه

---

(١) من أمثال تلك الفتن التى تحدث المؤرخون عنها بإسهاب فتنة الأمير تنم ٨٠٢هـ، وفتنة الأمير تغرى ورمش عام ٨٤٢هـ، وفتنة الأمير جانم عام ٨٦٥هـ.

(٢) سبط ابن العجمى: أحمد بن إبراهيم، تفقه على شيوخ عصره، وهو من كبار علماء حلب فى علم الحديث، توفى ٨٨٤هـ، انظر: سبط ابن العجمى «أحمد بن إبراهيم «ت ٨٨٤هـ»» «كنوز الذهب فى تاريخ حلب» ح ١ ص ٢٦، تحقيق د. شوقى شعث، دار القلم العربى، حلب، ١٩٩٧م.

(٣) سبط ابن العجمى «كنوز الذهب» ح ٢ ص ١٤٥.

(٤) انظر: ص ١٠.

(٥) انظر: ص ١١.

(٦) انظر: ص ٨.

obeikandl.com

بمصر[1] والشام[2]؟ ولِم كان العلماء يبايعون المُتصر عقب انتهاء الصراع[3]؟

ولقد أجابت الأدبيات السياسية[4] التى كتبها علماء العصر المملوكى عن التساؤلين السابقين كما يلى :

فبالنسبة للتساؤل الأول ، أوضح العلماء أنهم يعتبرون الشورى هى السبيل الشرعى لتداول السلطة ، ولكن الواقع التاريخى عقب عهد الراشدين عرف نظام ولاية العهد التى تعتبر افتئاتًا على حق الرعية[5] ، ولكنهم اعترفوا بذلك النظام المخالف لجوهر الإسلام استنادًا لمبدأ الضرورة[6] ـ تلك الضرورة التى أوضحها الفقهاء بأنها تُلجِأ إلى المحظور وتجعله مُباحًا ـ ، حيث أن الخروج على المستولى بالسلطة ـ فى ظل نظام ولاية العهد ـ وعدم الاعتراف بولايته سيؤدى إلى كثرة الفتن وسفك الدماء وتلك مفاسد يجب درئها سواء بارتكاب أخف[7] الضررين ، أو

---

(١) انظر : ص ١٤.

(٢) انظر : ص ١٧.

(٣) انظر : ص ١٣، ١٤.

(٤) ومن أهم تلك الأدبيات السياسية ، « تحرير الأحكام فى تدبير أهل الإسلام » لابن جماعة « ت ٧٣٣هـ » ، « مآثر الإنافة فى معالم الخلافة » للقلقشندى « ت ٨٢١هـ » .

(٥) ابن جماعة « محمد بن إبراهيم « ت ٧٣٣هـ » » « تحرير الأحكام فى تدبير أهل الإسلام » ص ٥، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٣٠٤) ، القلقشندى « أحمد بن عبد الله « ٨٢١هـ » » « مآثر الإنافة فى معالم الخلافة » ص ٣٩، دار عالم الكتب ، بيروت ، ١٩٦٤م .

(٦) **الضرورة** : هى العذر الذى يجوز بسببه إجراء الشىء الممنوع وارتكاب المحظور ، فهى ظرف قاهر يُلجئ الإنسان إلى فعل محرم ، وهى ـ أيضًا ـ الحالة الملجئة لتناول الممنوع شرعًا ، والضرورة تقدر بقدرها ، فالاضطرار إنما يبيح من المحظورات مقدار ما يدفع الخطر ، فلا يجوز الاسترسال ، ومتى زال الخطر عاد الحظر ، كما أن ما تدعو إليه الضرورة من المحظورات إنما يرخص منه القدر الذى تندفع به الضرورة فحسب ، انظر : د. فريدة زوزو « الضرر يزال : دراسة تأصيلية ومقارنة بين السيوطى وابن نجيم » ص ١٠، دورية آفاق الثقافة والتراث ، مركز جمعة الماجد للثقافة والتراث ، الإمارات ، العدد (٤٣) السنة الحادية عشر ، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م .

(٧) هذه القاعدة محكومة بقاعدة أن الضرورات تبيح المحظورات ، فإذا وجدت محظورات أو أضرار ، وكان من الضرورى ارتكاب أحد الضررين أو المحظورين لدفع الآخر ، فإنه يلزم ارتكاب أخفيهما وأهونهما وأقلهما مفسدة وضررًا ، انظر : د. فريدة زوزو « الضرر يزال » ص ١٢٠.

درء المفاسد[1] أولى من جلب المنافع[2].

أمّا بالنسبة للتساؤل الثانى، فلقد أوضح العلماء أن سلطان مصر والثائرين عليه سواء بمصر أو الشام ـ من منظور الشرع الإسلامى ـ كلاهما يفتقد المشروعية التى تستوجب مناصرته، فسلطان مصر ـ كما سبق القول ـ وصل إلى السلطة بالتغلُّب والقوة متسترًا بثوب ولاية العهد وذلك مُناقض لجوهر الإسلام ومبادئه، أمّا هؤلاء الثائرون الذين أشعلوا الفتن والقلاقل من أجل الاستيلاء على كرسى الحكم بالقوة، فهم كذلك مفتقدون للشرعية الإسلامية التى تستوجب مناصرتهم[3]؛ ولذلك آثر علماء مصر والشام اعتزال الفريقين المتصارعين.

أمّا عن مبايعة العلماء لهؤلاء الثائرين الذين استطاعوا الاستحواذ على كرسى الحكم من ولى العهد، فلقد برره العلماء بمبدأ الضرورة الذى سبق أن برر به العلماء قبولهم ولاية العهد كسبيل لتداول السلطة[4].

---

(١) بمعنى إذا تعارضت مفسدة ومصلحة قدم دفع المفسدة غالبًا؛ لأن اعتناء الشارع بالمنهيات أشد من اعتنائه بالمأمورات، انظر: د. فريدة زوزو «الضرر يزال» ص ١٣.

(٢) ابن جماعة «تحرير الأحكام فى تدبير أهل الإسلام» ص ٦، القلقشندى «مآثر الإنافة فى معالم الخلافة» ص ٧١، ولقد كان علماء العصر المملوكى فى ذلك الاجتهاد الفقهى يسيرون على نهج علماء الإسلام السابقين عليهم، انظر ـ على سبيل المثال ـ:

أ ـ أبو يعلى الفراء «محمد بن الحسين «ت ٤٥٨هـ»» «الأحكام السلطانية» ص ٢٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.

ب ـ الجوينى «أبو عبد الله محمد «ت ٤٧٨هـ»» «غياث الأمم فى التياث الظلم» ص ٣٢٧، تحقيق د. عبد العظيم الديب، مكتبة إمام الحرمين، ١٤٠١هـ.

ولمزيد من الإيضاح حول هذا الموضوع انظر: د. ظافر القاسمى «نظام الحكم فى الشريعة والتاريخ» ص ٥٧٣، د. عبد اللطيف المتدين «إمارة التغلب فى الفكر الإسلامى» ص ١٦٧، ماجستير، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، ١٩٩١م.

(٣) ابن جماعة «تحرير الأحكام» ص ٦، القلقشندى «مآثر الإنافة فى معالم الخلافة» ص ٥٨.

(٤) ابن جماعة «تحرير الأحكام» ص ٦، القلقشندى «مآثر الإنافة فى معالم الخلافة» ص ٧١.

المحور الثانى : اتجاهات العلماء إزاء الأداء السياسى للسلطة الحاكمة

تذكر المصادر التاريخية أن اتجاهات العلماء إزاء الأداء السياسى للسلطة المملوكية توزعت بين اتجاهين رئيسيين ، اتجاه يرى الاتصال بالسلطة المملوكية ، بينما الاتجاه الآخر يرى اعتزال تلك السلطة .

وسوف يعرض الباحث ـ خلال السطور التالية ـ أهم ملامح وأبعاد هذين الاتجاهين .

أ ـ العلماء والاتصال بالسلطة :

إن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[١] ، يكتسب أهمية بالغة فى حياة الأمة المسلمة ، فهو كما أوضح علماء العصر المملوكى ـ أمثال العالِم ابن تيمية[٢] « ت ٧٢٨هـ » والعالم الزين أبو الروح[٣] « ت ٨٥٦هـ » والعالم تقى الدين البلاطنسى[٤] « ت ٩٣٦هـ » ـ أنه القطب الأعظم فى الدين ولو أهمل لتعطلت النبوة ، واضمحلت الديانة ، وفشت الضلالة ، وانتشر

---

(١) **الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر** : يحدد ابن تيمية « المعروف » بأنه كل ما أمر الله به ورسوله ﷺ ، أو هو اسم جامع لكل ما يحبه الله من الإيمان والعمل الصالح ، أما « المنكر » هو الذى نهى الله عنه ورسوله ﷺ ، انظر : ابن تيمية « أحمد بن عبد الحليم « ت ٧٢٨هـ » » « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » ص ٥، تحقيق د. صلاح الدين المنجد ، دار الكتاب الجديد ، بيروت ، ط ١ (١٩٧٦م) .

(٢) ابن تيمية : أحمد بن عبد الحليم ، شيخ الإسلام بدمشق فى عصره ، درس وأفتى ، واشتهر بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، توفى ٧٢٨هـ ، انظر : ابن العماد الحنبلى « شذرات الذهب فى أخبار من ذهب » ح ٦ ص ٨٠، دار الفكر للطباعة ، « د. ت » .

(٣) الزين أبو الروح : عبد الرحمن بن أبى بكر ، تفقه على شيوخ عصره ، درس وافتى ، وكان من كبار علماء الحنابلة بدمشق ، توفى ٨٥٦هـ ، انظر : ابن مكى « السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة » ح ٢ ص ٤٨١، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ٦٢.

(٤) تقى الدين البلاطنسى : أبو بكر بن محمد بن عبد الله ، تفقه على شيوخ عصره ، حتى صار رأس الشافعية بدمشق فى عصره ، درس وأفتى ، توفى ٩٣٦هـ ، انظر : ابن المبرد « متعة الأذهان » ص ٢٢٠، الغزى « الكواكب السائرة » ص ٨٨.

الفساد[1] ، ولذلك فهو من أهم واجبات العالِم فى المجتمع المسلم بصفة عامة وتجاه السلطة الحاكمة بصفة خاصة ـ كما ورد بكتاباتهم ـ .

ومن خلال مبدأ الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ـ السابق ذكره ـ اتصل علماء مصر والشام بالسلطة ، ذلك الاتصال الذى رصدته المصادر التاريخية فى ثلاثة أشكال رئيسية :

* العلماء وجهاد السلطة باللسان .
* العلماء وثورات المصريين والشاميين ضد الولاة والنواب .
* العلماء وخلع السلطان المملوكى .

* العلماء وجهاد السلطة باللسان :

لقد عانى المصريون والشاميون فى ظل حكم المماليك شتى ألوان الظلم ، ولقد كشفت لنا المصادر التاريخية كيف كافح العلماء بلسانهم تلك المظالم ـ كما سيتبين ـ .

ويمكن تحديد أبرز تلك المظالم فى مظالم أربع[*] أولها ما كانت تفرضه السلطة المملوكية من أموال ـ غير محددة ـ على المصريين والشاميين أوقات تعرض البلاد لمخاطر خارجية ، ولقد رصدت لنا المصادر التاريخية معارضة العلماء لهذا الأمر ونجاحها فى أحيان غير قليلة إلغاء هذه المغارم المالية التى كانت تُفرض على المصريين والشاميين ، وأما الأحيان التى كانت تفشل فى إثناء السلطة عن التعرض لأموال المصريين والشاميين فكانت تُعلن بصراحة وجرأة عدم مشروعية هذا الإجراء المملوكى .

ولكن قبل عرض الشواهد التاريخية التى تؤكد ذلك يستلزم توضيح أمرين ، أولهما لماذا

---

(١) الزين أبو الروح « عبد الرحمن بن أبى بكر « ت ٨٥٦هـ » » « الكنز الأكبر فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » ص ١٠، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٤٦٧٢٦) ، ابن تيمية « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » ص ٧، ابن تيمية « الحسبة فى الإسلام » ص ٦٢، المكتبة العلمية ، السعودية ، « د. ت » .

(*) هناك مظالم اقتصادية عانى منها المصريون والشاميون فى ظل العهد المملوكى كالمكوس والاحتكار والطرح وغير ذلك ، وسوف يتناول الباحث تلك المظالم ودور العلماء فى مكافحتها بفصل « العلماء والحياة الاقتصادية » .

عارض العلماء السلطة المملوكية رغم تعرض البلاد للأخطار الخارجية؟، وثانيهما لماذا كانت السلطة المملوكية تتراجع ـ فى كثير من الأحيان ـ عن فرض تلك الأموال بعد معارضة العلماء لها؟ ذلك ما سيوضحه الباحث فى السطور التالية.

بالنسبة للأمر الأول، لماذا عارض العلماء السلطة المملوكية رغم تعرض البلاد للأخطار الخارجية؟

من الجدير بالذكر ـ قبل الإجابة عن هذا التساؤل ـ أن كافة الشواهد التاريخية ـ التى اطلعت عليها ـ خلال القرن التاسع كما رصدها المؤرخون كانت تقتصر على استدعاء السلطان للعلماء، وأنه يعزم على فرض الأموال على الرعية لدرء الخطر الخارجى الذى يهدد البلاد ويطالبهم بتأييد هذا القرار وإلباسه ثوب الشرعية فيرفض العلماء ويعلنون معارضتهم لهذا القرار بقوة فيستجيب لهم السلطان أحيانًا ولا يستجيب لهم فى أحيان أخرى، وذلك فى عبارات موجزة لا توضح طبيعة الحوار الذى كان يدور بين السلطان والعلماء ولماذا عارض العلماء جمع الأموال من الرعية.

ولكن المصادر التاريخية شذت عن هذا العرض المقتضب عام ٨٧٢هـ/١٤٦٧م عندما استدعى السلطان قايتباى[١] العلماء وأخبرهم بأنه عزم على فرض قدرًا من المال ـ غير محدد ـ على المصريين لدرء خطر التركمان[٢] الذى كان يمثله آنذاك شاه

---

(١) قايتباى: الأشرف قايتباى، تولى كرسى السلطنة عام ٨٧٢هـ، وكانت مدة حكمه ٢٩ سنة وأربعة أشهر وواحد وعشرين يومًا، توفى عام ٩٠١هـ، انظر: ابن إياس «بدائع الزهور» ح٣ ص ٣٢٤.

(٢) **التركمان**: اختلف فى وجه تسمية التركمان تركمان، فقيل سمّوا بذلك لأن كل من أسلم من أتراك خراسان وما وراء النهر فى صدر الإسلام كان يقال له «صار ترجمانًا» لكونه ترجمان بين العرب الفاتحين بسبب اختلاطه معهم، وتعلمه اللسان منهم وبين من لم يُسلم من الأتراك حتى صار ذلك علمًا لهم أى لمن أسلم منهم، ثم قيل بالتحريف تركمان، وقيل أنهم سمّوا بذلك لأن هؤلاء لمّا قدموا إلى تلك الديار واختلطوا بأقوامها وامتزجوا بسكانها خرج أولادهم عن صرافة لون الأتراك وأشكالهم بمُقتضى طبيعة الإقليم، فقيل لهم «ترك مانند» يعنى يشبهون الترك، ثم اختصر هذا اللقب فقيل «تركمان»، ولقد سيطر التركمان على بلاد العراق خلال القرن التاسع الهجرى وأقاموا لأنفسهم دويلات كدويلة القراقيونلو «أصحاب الخروف الأسود» ودويلة الأقيونليون «آق قويونلو» «طائفة الخروف الأبيض»، انظر: م. م. الرَّمزى «تلفيق =

سوار[1] ، ولكن العلماء بقيادة أمين الآقصراى[2] عارضه بقوة ، ثم تذكر المصادر التاريخية مبررات رفض العلماء على لسان العالم أمين الآقصراى ، حيث أعلمه أن جمع الأموال من الرعية لا يحل لك إلا بعد أن ينفذ جميع ما فى بيت المال ، ثم ينظر إلى ما فى أيدى السلطان والأمراء من أموال وحُلى نساء ومتاع وغير ذلك ، ثم بعد ذلك ينظر إلى أموال الرعية ، ولكن مع تكدس خزائنك وخزائن أمرائك فلا[3] .

ومن الجدير بالذكر أن هذا الرأى الذى ذكره العالِم أمين الآقصراى هو ما جاء على لسان العالِم العزب بن عبد السلام[4] « ت ٦٦٠هـ » حينما أرادت السلطة المملوكية عام ٦٥٧هـ فرض أموال على المصريين لدرء خطر المغول[*][5] ، وهو ما جاء أيضًا على لسان العالم محيى

= الأخبار وتلقيح الآثار فى وقائع قزان وبلغار وملوك التتار » ح ١ ص ٣٤٣، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ (٢٠٠٢م) ، كليفورد ا. بوزورث « الأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى » ص ٢٢٨ ـ ٢٣٤، ترجمة حسين على ، دار عين للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٥م ، فرج محمد « العلاقات الخارجية لدولة المماليك فى العراق ١٧٤٩م ـ ١٨٣١م » ص ٥، ماجستير ، آداب القاهرة ، ١٩٦٥م .

(١) شاه سوار : سوار بن سليمان بن دلغادر التركمانى ، ويقال له « شاه سوار » ، نائب الأبلستين ومرعش ، خرج عن طاعة السلطة المملوكية عهد خشقدم ودارت حروب بينه وبين دولة المماليك هُزِم فيها المماليك ، ولما حكم قايتباى تمكن من هزيمته وقتله عام ٨٧٧هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٣ ص ٢٧٤.

(٢) أمين الآقصراى : يحيى بن محمد ، كان من كبار علماء الحنفية بمصر ، درس وأفتى ، توفى ٨٨٠هـ ، انظر : ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٣ ص ١٠٧.

(٣) مجهول « حوادث الزمان » ص ٥٩، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (١٤٦١٨) ، ابن شاهين « عبد الباسط بن خليل « ت ٩٢٠هـ » » « الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم » ح ٤ ص ١٨٣، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٢٤٠٣) ، ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٣ ص ١٤.

(٤) العز بن عبد السلام : عبد العزيز بن عبد السلام ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء مصر ، وخطابة الجامع بدمشق ، وكان سلطان العلماء فى عصره ، توفى ٦٦٠هـ ، انظر : السبكى « تاج الدين عبد الوهاب « ت ٧٧١هـ » » « طبقات الشافعية الكبرى » ح ٨ ص ٢٠٩، مكتبة عيسى البابى الحلبى ، ١٩٧٤م .

(*) **المغول** : قبائل طورانية جاءت من أقصى الشرق حيث منغوليا ، ولقد استطاع جنكيزخان « ٥٥٠ ـ ٦٢٤هـ » أن يؤسس لهم إمبراطورية شاسعة عام ٦٠٣هـ/١٢٠٦م ، انظر : د. فايد حماد « العلاقات السياسية بين المماليك والمغول » ص ٢٧، دار المعارف ، مصر ، ١٩٧٦م .

(٥) المقريزى « السلوك » ح ١ ص ٤١٦.

الدين النووى[١] « ت ٦٧٨هـ » عندما أراد الظاهر بيبرس[٢] فرض الأموال على الدمشقيون لدرء خطر المغول عام ٦٧٦هـ[٣] .

ولقد كان العلماء فى رأيهم السابق على صواب ، حيث أن المصادر التاريخية تذخر بمظاهر البذخ والترف الذى كان يعيشه المماليك[٤] ، والتى منها ما تذكره المصادر التاريخية من أن السلطان قايتباى[٥] عام ٨٩٥هـ/١٤٨٩م أقام حفل ختان لابنه استمر سبعة أيام متوالية ، قدم الأمراء خلالها من الأموال كهدايا ما يزيد على خمسين ألف دينار ، فضلاً على مظاهر البذخ المتنوعة التى أهدر فيها قايتباى الأموال الضخمة خلال هذا الاحتفال[٦] ، كما أن هذا السلطان كانت زوجته فاطمة الخاصكية لديها أملاك طائلة من قصور ووكالات تجارية وأراضى زراعية[٧]!!

أما بالنسبة للأمر الثانى ، **لماذا تراجع السلطان المملوكى عن جمع الأموال بعد معارضة العلماء له ؟**

---

(١) محيى الدين النووى : يحيى بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، صار رأس الشافعية بدمشق فى عصره ، درس وأفتى ، توفى ٦٧٨هـ ، انظرك السبكى « طبقات الشافعية » ح ٧ ص ٥١.

(٢) الظاهر بيبرس : هو المؤسس الحقيقى لدولة المماليك فى مصر والشام ، ولقد شغل كرسى السلطنة على مدار سبعة عشر عام ، توفى ٧٧٦هـ ، انظر : المقريزى « السلوك » ح ١ ص ٦٣٥.

(٣) السيوطى « حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة » ح ٢ ص ١٠٥ ، تحقيق محمد أبو الفضل ، مكتبة عيسى البابى الحلبى ١٩٦٨م .

(٤) د. أحمد عبد الرازق « البذل والبرطلة زمن سلاطين المماليك : دراسة عن الرشوة » ص ١٣٥ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٧٩م ، أحمد محمد « الوضع الاقتصادى فى مصر فى عصر الدولة المملوكية الأولى » ص ٤٨٢ ، دكتوراة ، آداب عين شمس ، ١٩٧٢م ، د. إبراهيم طرخان « النظم الإقطاعية فى دولة المماليك » ص ١١٨ ، دكتوراة ، آداب القاهرة ، ١٩٥٥م .

(٥) قايتباى : انظر : ص ٢٢ .

(٦) ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٣ ص ٢٧١ ، تحقيق محمد مصطفى ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م .

(٧) وذلك ما تشهد به وثائق فاطمة الخاصكية التى وصلت إلينا ، انظر : مريم صالح « دراسة دبلوماتية لوثائق فاطمة الخاصكية » ص ٢٠ ـ ٧١ ، ماجستير ، آداب القاهرة ، ١٩٩٤م .

يرى الباحث أن ذلك يرجع إلى ما كان يتمتع به علماء مصر والشام من مكانه عالية ومحبة جارفة فى قلوب المصريين والشاميين، شهد بها مؤرخو العصر المملوكى وهم يترجمون لعلماء مصر والشام فى عبارات توضح وتؤكد تلك المكانة العالية والمحبة الجارفة التى حظى بها علماء مصر والشام والتى منها «أحبه العامة»، «أثنى الناس عليه»، «كان الناس يحبونه ويهرعون إليه فى كافة أمورهم ويزدحمون ببابه»، «حملت جنازته على الرؤوس ولم يستطع أحد من كثرة الزحام الوصول إليها»، «ووقع النوح عليه فى سائر الأقطار»، ومن أمثال هؤلاء العلماء الذين أورد المؤرخون فى تراجمهم العبارات السابقة:

«سعد الدين الديرى[(١)]، أمين الآقصراى[(٢)]، ابن حجر العسقلانى[(٣)]، بدر الدين الحكرى[(٤)]» «من علماء مصر».

«تقى الدين الحصنى[(٥)]، شمس الدين البلاطنسى[(٦)]، أبو بكر بن قاضى عجلون[(٧)]»، برهان الدين بن مفلح[(٨)]» «من علماء دمشق».

---

(١) ابن شاهين «الروض الباسم» ص ٥٨، السخاوى «الضوء اللامع» ح ٤ ص ٢٥٠.

(٢) السخاوى «الضوء اللامع» ح ١٠ ص ٢٤٢، ابن إياس «بدائع الزهور» ح ٣ ص ١٠٧.

(٣) البقاعى «عنوان الزمان» ح١ ص ٥٦، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (١٧٩٥١)، ابن الحمصى «حوادث الزمان» ح ١ ص ٩٠، السخاوى «الضوء اللامع» ح ٢ ص ٤٠.

(٤) ابن مفلح «برهان الدين إبراهيم «ت ٨٨٤هـ»» «المقصد الأرشد فى ذكر أصحاب أحمد» ح ٢ ص ٤٨١، تحقيق د. عبد الرحمن سليمان، مكتبة الرشد، الرياض، ط ١ (١٩٩٠م).

(٥) ابن خطيب الناصرية «ت ٨٤٣هـ» «الدر المنتخب فى تكملة تاريخ حلب» ص ٢٠٤، مخطوطة بمعهد المخطوطات برقم (١١٩٨)، البقاعى «عنوان الزمان» ح ١ ص ١٧٧، ابن قاضى شهبة «أبو بكر بن أحمد ت ٨٥١هـ» «طبقات الشافعية» ح ٢ ص ٣٠٨.

(٦) ابن الحمصى «حوادث الزمان» ح ١ ص ١٤٣.

(٧) الغزى «نجم الدين أبو المكارم «ت ١٠٦١هـ»» «الكواكب السائرة بأعيان المائة العاشرة» ص ١١٥، تحقيق جبرائيل سليمان، بيروت، «د. ت».

(٨) ابن مفلح «المقصد الأرشد» ح ١ ص ٣٠، السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ١٥٢.

obeikandl.com

« شهاب الدين الرملى[١] ، نجم الدين بن جماعة[٢] » « من علماء القدس » .

فكان إحساس الخوف من نفوذ العلماء لدى المصريين والشاميين هو البعد الرئيسى الذى يحكم العلاقة بين السلطة والعلماء ، ولعل ما يؤكد ذلك تلك الإشارات التاريخية التى وصلت إلينا والتى تؤكد المعنى السابق ، والتى منها ما ذكرته المصادر التاريخية أن السلطان الظاهر بيبرس[٣] « ت ٧٧٦هـ » عندما علم بوفاة العالِم العز بن عبد السلام[٤] « ت ٦٦٠هـ » قال : « اليوم استقر أمرى فى المُلك لأن هذا الشيخ لو كان يقول للناس أخرجوا عليه لانتزع المُلك منى »[٥] ، وكان السلطان الناصر بن قلاوون[٦] « ت ٧٤١هـ » يقول : « إنى لا أخاف من أحد إلا من العالم شمس الدين الحريرى[٧] « ت ٧٤٥هـ » »[٨] ، وكذلك عجز السلطة المملوكية عن المساس بالعالم أبو هريرة بن النقاش[٩] « ت ٨١٩هـ » ـ

---

(١) البقاعى « عنوان الزمان » ح ١ ص ٦٧، مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل » ح ٢ ص ١٧٤، المطبعة الحيدرية ، النجف الأشرف ، العراق ، ١٩٦٨م .

(٢) الغزى « الكواكب السائرة » ص ٢٥.

(٣) الظاهر بيبرس : انظر : ص ٢٤.

(٤) العز بن عبد السلام : انظر : ص ٢٣.

(٥) السبكى « طبقات الشافعية » ح ٨ ص ٢١٥.

(٦) الناصر بن قلاوون : هو من أقوى سلاطين دولة المماليك البحرية ، تولى الحكم ثلاث مرات ، الأولى فى عام ٦٩٣هـ واستمر سنة واحدة ثم عزل ، ثم تولى من عام ٦٩٨هـ حتى عام ٧٠٨هـ ، ثم أعيد للحكم عام ٧٠٩هـ واستمر على كرسى السلطنة حتى وفاته عام ٧٤١هـ ، وكانت هذه الولاية الثالثة أعظم تلك الولايات ، وازدهرت خلالها أحوال مصر والشام ، انظر : المقريزى « السلوك » ح ٢ ص ٥٢٩.

(٧) شمس الدين الحريرى : محمد بن عثمان ، تفقه على شيوخ عصره ، ولى قضاء دمشق ، ثم قضاء القاهرة ، ولد عام ٦٥٣هـ ، توفى ٧٢٨هـ ، انظر محيى الدين القرشى « عبد القادر بن محمد « ت ٧٧٥هـ » » « الجواهر المضيئة فى طبقات الحنفية » ح ٣ ص ٢٥٠، تحقيق د. عبد الفتاح محمد الحلو ، دار هجر للطباعة (ط ٢) (١٩٩٣م) .

(٨) ابن بطوطة « رحلة ابن بطوطة المسماة « تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار » » ص ٦٣، شرحه وكتب هوامشه طلال حرب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط ٢، (١٤١٣هـ/١٩٩٢م) .

(٩) أبو هريرة النقاش : عبد الرحمن بن محمد بن على ، ولد ٧٤١هـ ، تفقه بشيوخ عصره ، ولى خطابة جامع ابن طولون ، توفى ٨١٩هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ١٤١.

خطيب جامع[1] ابن طولون ـ رغم تنديد هذا العالم بمظالم السلطة المملوكية من فوق منبر جامع ابن طولون، وذلك بسبب حُبّ المصريين له[2].

ومن ذلك أيضًا ما ذكرت المصادر التاريخية أن السلطان برسباى[10] «ت ٨٤١هـ» أرسل مرسومًا لنائبه بدمشق عام ٨٣٠هـ/١٤٢٦م بعدم الاقتراب أو المساس من العالم نجم الدين الحسبانى[11] رغم شكاوى أمراء الشام بأنه يُجاهر بمظالم المماليك وذلك لالتفاف أهالى دمشق حوله[12]، وما كان السلطان قايتباى[13] «ت ٩٠١هـ» يقوم به من التودد والتواضع للعالم أمين الآقصراى[14] بالرغم من شدة هجومه عليه والتنديد بسياساته خوفًا من نفوذه لدى المصريين[15].

والآن يعرض الباحث للشواهد التاريخية التى تدلل على معارضة العلماء فرض أموال على الرعية بعلة درء المخاطر الخارجية، والتى يُلحظ عليها أنها جاءت فى شكل برقيات موجزة ـ كما سبق القول ـ.

---

(١) **جامع ابن طولون**: أنشأه السلطان أحمد بن طولون عام ٢٦٥هـ، وهو يقع شرقى حىّ السيدة زينب جنوبى القاهرة، وكان بمثابة جامعة علمية يُدرس بها العلوم المختلفة فى العصر المملوكى، انظر: د. كرم حلمى «المسجد ودوره الحضارى فى ضوء مكانة جامع ابن طولون» ص ١٤٢، بحث نشر ضمن أعمال ندوة اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة عام ٢٠٠٢م، وتم نشره فى كتاب بعنوان «الحضارة العربية الإسلامية فى العصور الوسطى»، دار عين للنشر، القاهرة، ٢٠٠٢م.

(٢) الغزى «نجم الدين أبو المكارم «ت ١٠٦١هـ»» «بهجة الناظرين فى تراجم الشافعية المتأخرين» ص ١٢٦، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٣٦٠٠٣)، ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٧ ص ٢٣٢، السخاوى «الضوء اللامع» ح ٤ ص ١٤١.

(١٠) برسباى: انظر: ص ١٠.

(١١) نجم الدين الحسبانى: عمر بن حجى، تفقه بشيوخ عصره، تولى قضاء دمشق إحدى عشر عامًا ـ على فترات متفاوتة ـ، توفى ٨٣٠هـ، انظر: ابن طولون «قضاة دمشق» ص ١٤٣.

(١٢) ابن طولون «قضاة دمشق ص ١٤١.

(١٣) قايتباى: انظر: ص ٢٢.

(١٤) أمين الآقصراى: انظر: ص ٢٣.

(١٥) السخاوى «الضوء اللامع» ح ١٠ ص ٢٤١.

ومن ذلك ما أوردته المصادر التاريخية عام ٨٠٣هـ/١٤٠٠م عندما أراد السلطان فرج بن برقوق[١] فرض أموال على المصريين من أجل الاستعانة بها فى الدفاع عن البلاد من خطر المغول[٢] الذى كان يمثله ـ آنذاك ـ تيمورلنك[٣]، فاستدعى السلطان العلماء وطالبهم بإعطائه فتوى تجيز له ذلك، ولكن علماء مصر بقيادة العالم جمال الدين الملطى[٤] رفضوا ما أراد، وبيّنوا له عدم شرعية ذلك، وانفض المجلس دون اتخاذ قرار، ولكن السلطة المملوكية عقب ذلك بقليل صادرت أموال المصريين لمواجهة تيمورلنك[٥].

وفى عام ٨٣٩هـ/١٤٣٥م أراد السلطان برسباى[٦] فرض أموال على المصريين من أجل الاستعانة بها فى محاربة شاه رخ[٧] المغولى، لكن العلماء[٨] عارضوه، فتراجع السلطان[١٠].

---

(١) فرج بن برقوق: انظر: ص ١٥.

(٢) المغول: انظر: ص ٢٣.

(٣) تيمورلنك: تيمور: تعنى الحديد، اللنك: الأعرج، ولد فى قرية من أعمال كش من مدن بلاد ما وراء النهر ٧٣٧هـ/١٣٣٦م، استولى فى سرعة مدهشة على بلاد ما وراء النهر، ثم اتجه بعد ذلك إلى بلاد المشرق، وخرب بها مدن عامرة، توفى بسمرقند عام ٨٠٧هـ، انظر: محمد كرد «خطط الشام» ح ٢ ص ١٦١، المطبعة الحديثة، دمشق، ١٩٢٥م.

(٤) جمال الدين الملطى: يوسف بن موسى، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء الحنفية بمصر، توفى ٨٠٣هـ، انظر: المقريزى «السلوك» ح ٣ ص ١٠٧٣.

(٥) ابن حجر العسقلانى: «إنباء الغمر» ح ٤ ص ١٩٢، المقريزى «السلوك» ح ٣ ص ١٠٢٨، ابن تغرى «النجوم الزاهرة» ح ١٢ ص ١٧٥، ابن الصيرفى «نزهة النفوس» ح ٢ ص ٩٨، ابن شاهين «نيل الأمل» ح ٣ ص ٤٦.

(٦) برسباى: انظر: ص ١٠.

(٧) شاه رخ: شاه رخ بن تيمور صاحب هراة وسمرقند وبخارى وشيراز وما والاها من بلاد العجم وغيرها، كانت علاقته بالدولة المملوكية عهد برسباى سيئة ثم تحسنت العلاقة عهد جقمق، وكانت سيرته فى بلاده حسنة بشكل عام، توفى ٨٥١هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٣ ص ٢٩٧.

(٨) لم تذكر المصادر التاريخية علماء بأعينهم فى تلك الحادثة.

(١٠) ابن إياس «بدائع الزهور» ح ٢ ص ١٦٦، ابن الصيرفى «نزهة النفوس» ح ٣ ص ٣٣٥.

obeikandl.com

وفى عام ٨٧٢هـ/١٤٦٧م أراد السلطان قايتباى[١] فرض الأموال على المصريين لدرء خطر التركمان[٢] الذى كان يمثله آنذاك شاه سوار[٣]، ولكن العلماء بقيادة أمين الآقصراى[٤] عارضوه بقوة، فاضطر إلى التراجع ـ كما سبق القول ـ.

وفى عام ٨٧٣هـ/١٤٦٨م يكرر السلطان قايتباى[٥] المحاولة لدرء خطر التركمان، ولكن العلماء بقيادة أمين الآقصراى عارضوه بقوة، فاضطر إلى التراجع[٦].

أمّا فى عام ٨٩٤هـ/١٤٨٨م، عندما تزايد خطر العثمانيين[٧]، شرع السلطان قايتباى فى مصادرة أموال المصريين بالقوة، وبمجرد حدوث ذلك، اخذ العلماء[٨] ينددون بالسلطة المملوكية ونجحوا فى جعل المصريين يخرجون فى مظاهرات قوية تعلن رفضها وإنكارها لمصادرة أموالهم، فاضطر السلطان للتراجع، وكف يديه عن أموال المصريين[٩].

---

(١) قايتباى: انظر: ص ٢٢.

(٢) التركمان: انظر: ص ٢٢.

(٣) شاه سوار: انظر: ص ٢٣.

(٤) أمين الآقصراى: انظر: ص ٢٣.

(٥) قايتباى: انظر: ص ٢٢.

(٦) ابن شاهين «الروض الباسم» ح ٤ ص ٢١٠، ابن الصيرفى «إنباء الهر بأبناء العصر» ص ٣٣، دار الفكر العربى، القاهرة، ١٩٧٠م.

(٧) **العثمانيون**: ينتسب العثمانيون إلى قبيلة أرتغرل التركية التى استوطنت الأناضول بعد اشتداد الخطر المغولى على آسيا الوسطى وعرفوا بالعثمانيين نسبة إلى عثمان مؤسسة دولتهم أواخر القرن السابع الهجرى/ الثالث عشر الميلادى، انظر: د. عصام شبارو «السلاطين فى المشرق العربى» ص ١٠٥، د. شميق إبراهيم «تاريخ الشرق الإسلامى الحديث وحضارته زمن المماليك والعثمانيين» ص ١٣١، مطبعة العمرانية، الجيزة، ١٩٩٩م.

(٨) لم تذكر المصادر التاريخية علماء بأعينهم فى تلك الحادثة.

(٩) السخاوى «الذيل التام على دول الإسلام» ص ٤٢٣، تحقيق أحمد عبد الله، ماجستير، آداب عين شمس، ١٩٦٨م.

obeikandi.com

أمّا بالنسبة لبلاد الشام فكان موقف علمائها لا يختلف عن موقف علماء مصر، ومن ذلك ما ذكرته المصادر التاريخية عام ٦٧٦هـ عندما أراد السلطان ظاهر بيبرس[١] فرض الأموال على أهالى دمشق للاستعانة بها فى حروبه ضد المغول، ولكن العالم محيى الدين النووى[٢] توجّه للسلطان بيبرس وخاطبه بحدة، حيث صرح له بعد شرعية جمع الأموال من الأهالى ما دام بيت المال ملئ بالمال، ثم أخذ يُحصى له ممتلكاته، ومظاهر البذخ والترف التى كان عليها السلطان وأمرائه، وهنا خشى الظاهر بيبرس بأس هذا العالم الذى لا يخشى فى الحق لومة لائم، فأصدر قرارًا بنفيه خارج حدود مملكته[٣].

ويتكرر المشهد السابق خلال القرن التاسع[*] عام ٨٠٣هـ/١٤٠٠م عندما أمر السلطان فرج[٤] بجمع أموال من أهالى دمشق لمواجهة خطر تيمورلنك[٥]، فتصدى علماء دمشق لهذا المرسوم وعارضوه[٦] بقوة، فاضطرت السلطة المملوكية إزاء معارضة العلماء إلى التراجع وكفت أيديها عن أموال الدمشقيين[٧].

أمّا ثانى المظالم التى عانى منها المصريون والشاميون فى ظل السلطة المملوكية ما يمكن أن نطلق عليه «مظالم الإداريين»، ويقصد الباحث بمظالم الإداريين تلك المظالم التى صدرت من أعضاء الجهاز الإدارى المملوكى تجاه المصريين والشاميين

---

(١) الظاهر بيبرس: انظر: ص ٢٤.

(٢) محيى الدين النووى: انظر: ص ٢٤.

(٣) السيوطى «حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة» ح ٢ ص ١٠٥، تحقيق محمد أبو الفضل، مكتبة عيسى البابى الحلبى، ١٩٦٨م.

(*) هذا المشهد التاريخى الذى صورته المصادر التاريخية عام ٨٠٣هـ هو المشهد الوحيد الذى رصدته المصادر التاريخية فى هذا الشأن.

(٤) فرج بن برقوق: انظر: ص ١٥.

(٥) تيمورلنك: انظر: ص ٢٨.

(٦) لم تصرح المصادر التاريخية الشامية كذلك بمظاهر هذه المعارضة وأبعادها، كما كان الحال فى المصادر التاريخية المصرية.

(٧) ابن شهبة «الإعلام بتاريخ أهل الإسلام» ص ٢٠٤.

مثل وظيفة الوالى[١] وشاد الأوقاف[٢] وغير ذلك، وذلك لأن الجهاز الإدارى المملوكى استشرى فيه ظاهرة شراء الوظائف بالمال[٣]، حيث يستطيع كل من يملك المبلغ المطلوب للوظيفة الوصول إليها بغض النظر عن معيار الكفاءة والعدالة، ولاشك أن هذا الخلل الإدارى أدى إلى معاناة المصريين والشاميين من هؤلاء الإداريين.

ولقد رصدت لنا المصادر التاريخية نماذج من هؤلاء الإداريين الذين عانى المصريون والشاميون من سوء إدارتهم ودور العلماء فى إقصاء هؤلاء الإداريين الذين عانى منهم المصريون والشاميون.

فتذكر المصادر التاريخية فى أحداث عام ٨٥٤هـ/١٤٥٠م معاناة أهل الشرقية[٤] من ظلم[٥]

---

(١) **الوالى**: هو الممثل المحلى للسلطان فى الولاية التى يتولاها، ويُطلق عليه أيضًا مُتولى الحرب، وكان يُختار من أمراء المماليك برتبة أمير طبلخاناة، انظر: القلقشندى «صبح الأعشى فى صناعة الإنشا» ح ٤ ص ٢١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٩م.

(٢) **شاد الأوقاف**: هو المسئول عن إدارة أوقاف المدينة، التى لم يشترط الواقف سبيلًا خاص لإدارتها، فيتولى استخلاص أجرة الأماكن الموقوفة ويُشرف على عمارتها، انظر: د. نقولا زيادة «دمشق فى عصر المماليك» ص ١٥٨، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٦٦م، د. محمد محمد أمين «تاريخ الأوقاف فى مصر عصر المماليك» ص ٣٩٩، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٨٠م.

(٣) تقى الدين الحصنى «أبو بكر بن محمد «ت ٨٢٩هـ»» «قمع النفوس» ص ٥، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٣٤٩٨٤)، الأسدى «التيسير والاعتبار» ص ٩٥، د. حياة ناصر «أحوال العامة فى حكم المماليك» ص ٢٦٦، دار القلم، الكويت، ١٩٩٤م، إسماعيل عبد المنعم «الأمراض الاجتماعية بين الطبقة الأرستقراطية المملوكية فى مصر زمن المماليك البحرية» ص ١٨٦، ماجستير، آداب عين شمس، ١٩٨٨م.

(٤) **الشرقية**: أصبحت أحد أقاليم مصر فى عهد الدولة الفاطمية، حيث كانت قبل ذلك مقسمة إلى عدة كور صغيرة، انظر: محمد رمزى «القاموس الجغرافى للبلاد المصرية» ح ٢ ص ٢٢، مطبعة دار الكتب المصرية، ١٩٦٨م.

(٥) لم تشر المصادر التاريخية إلى مظاهر ظلم هذا الوالى، ولكن المصادر التاريخية ترصد لنا فى غير ذلك الموضع أحد مظاهر ظلم ولاة الدولة المملوكية، حيث تذكر أن بعض ولاة الأقاليم كانوا يحتكرون شراء جميع المحصول الزراعى لهذا الإقليم من السكان الفلاحين بسعر منخفض، مستخدمين فى سبيل ذلك كل ما يملكون من صلاحيات، فيضطر الفلاح إلى الرضوخ للأمر الواقع ويبيع جميع محصوله بالثمن =

والى الشرقية[١] ، فصعد العالم شمس الدين البلاطنسى[٢] إلى السلطان جقمق[٣] وعرّفه بسوء سيرته وطالب بعزله ، فعزله السلطان[٤] .

وفى عام ٨٥٥هـ/١٤٥١م ازداد ظلم شاد الأوقاف[٥] وتضرر المصريون من سوء إدارته[٦] ، فصعد العالِم سعد الدين الديرى[٧] إلى السلطان جقمق وطالب بعزله ، فعزله السلطان[٨] .

أمّا فى دمشق عام ٨٠٤هـ/١٤٠١م عندما ازداد ظلم شاد الأوقاف[٩] ، وتضرر الدمشقيون من سوء مباشرته ، فصعد العلماء[١٠] إلى الأمير تغرى بردى[١١] نائب

= الذى يحدده الوالى مهما كان بخسًا وقليلًا ، ثم بعد ذلك يبيع الوالى ذلك المحصول فى السوق بالسعر الذى يريد ، ومن ذلك ما حدث عام ٨٥٤هـ بمدينة المحلة من قبل واليها ، لمزيد من الإيضاح ، انظر : السخاوى « التبر المسبوك » ص ١٧٥ ، د. حياة ناصر « أحوال العامة فى حكم المماليك » ص ٢٦٨.

(١) لم تحدد المصادر التاريخية اسم هذا الوالى .

(٢) شمس الدين البلاطنسى : محمد بن عبد الله ، تفقه بشيوخ عصره ، درس وأفتى ، وذاع صيته وشهرته لدى المصريين والشاميين على السواء ، توفى ٨٦٣هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٨ ص ٨٦.

(٣) جقمق : انظر : ص ١١.

(٤) ابن تغرى : « حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور » ح ١ ص ١٢٨ ، تحقيق وليم بوير ، طبعة كاليفورنيا ، « د. ت » .

(٥) لم تحدد المصادر التاريخية اسم شاه الأوقاف .

(٦) من مظاهر سوء إدارة شاه الأوقاف التلاعب بحسابات الأوقاف والتى منها استخلاص أجرة الأماكن الموقوفة ، ومن مظاهر سوء الإدارة أيضًا عدم استثمار ريع تلك الأوقاف فى تنمية تلك الأوقاف وتعميرها ، وذلك بالطبع يؤدى إلى انتفاء الغرض الجوهرى من وجود الأوقاف وهو تقديم يد العون الخيرى للمحتاجين ، انظر : د. محمد محمد أمين « تاريخ الأوقاف فى مصر » ص ٣٩٩ ، د. نقولا زيادة « دمشق فى عصر المماليك » ص ١٥٨ ، د. حياة ناصر « أحوال العامة » ص ٣٥٦.

(٧) سعد الدين الديرى : انظر : ص ١٣.

(٨) ابن تغرى « حوادث الدهور » ح ١ ص ١١٠.

(٩) لم تحدد المصادر التاريخية اسم شاد الأوقاف .

(١٠) لم تشر المصادر التاريخية إلى علماء بأعينهم .

(١١) تغرى بردى : تولى نيابة دمشق أواخر رمضان ٨٠٣هـ ، وعزل ذى القعدة ٨٠٥هـ ، وكان عاقلًا لبيبًا ، انظر : ابن طولون « إعلام الورى » ص ٥٧.

دمشق[١] ، وأخبروه سوء سيرته ، فعزله[٢] .

وفى عام ٨٥٤هـ/١٤٥٠م وصل العالم شمس الدين البلاطنسى[٣] من دمشق إلى مصر ليشكو إلى السلطان جقمق[٤] أبى الفتح الطيبى[٥] وكيل بيت المال[٦] بدمشق ، حيث كان ظالماً وتضرر الدمشقيون منه ، فاستجاب السلطان له وعزل أبى الفتح واعتقله[٧] .

وفى عام ٨٦١هـ/١٤٥٦م عندما ازداد ظلم « استادار دمشق »[٨] ، كتب العالم شمس الدين البلاطنسى إلى السلطان إينال[٩] يطالب بعزل الاستادار[١٠] ، ولم تشر المصادر التاريخية هل استجاب السلطان للبلاطنسى أم لا ؟!

وفى القدس[١١] عام ٨٦٧هـ/١٤٦٢م قدم .....

---

(١) نائب دمشق : انظر : ص ١٤.

(٢) ابن قاضى شهبة « الإعلام بتاريخ أهل الإسلام » ص ٢٨٢.

(٣) شمس الدين البلاطنسى : انظر : ص ٣٢.

(٤) جقمق : انظر : ص ١١.

(٥) أبى الفتح الطيبى : أبو الفتح محمد الطيبى ، كان فى بداية أمره يتكسب بالشهادة ، ثم اتصل برجال الدولة ، حتى تولى وكالة بيت المال بدمشق ، توفى ٨٥٤هـ ، انظر : ابن تغرى « حوادث الدهور » ص ٢٥٢.

(٦) **وكيل بيت المال** : هى من الوظائف الدينية ـ أى لا يتولاها إلا العلماء ـ ، وموضوعها التحدث فيما يتعلق بمبيعات بيت المال ومشترياته من أراضى وآدر وغير ذلك ، انظر القلقشندى « صبح الأعشى » ح ٤ ص ٣٧.

(٧) ابن تغرى « حوادث الدهور » ص ٢١٧، تحقيق فهيم شلتوت ، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، القاهرة ، ١٤١١هـ/١٩٩٠م .

(٨) **استادار دمشق** : هو الذى يتكلم على الإقطاع والفلاحين بدمشق ، انظر : د. أكرم حسن « نيابة دمشق » ص ٢٥٩.

(٩) إينال : انظر : ص ٦.

(١٠) البقاعى « إظهار العصر » .

(١١) **القدس** : مدينة جبلية واقعة بين البحر الميت من الشرق ، والبحر الأبيض المتوسط من الغرب ، وتقع القدس على خط طول خمسة وثلاثين درجة وثلاث عشر دقيقة شرقى غرنتش ، وخط عرض واحد وثلاثين درجة وسبع وأربعين دقيقة شمالاً ، وتبعد عن دمشق مائتين وتسعين كيلو مترًا ، وكانت القدس =

obeikandi.com

شيخ بلد الخليل[١] ـ عليه السلام ـ وهو العالِم سراج الدين عمر بن الجعبرى[٢] إلى مصر، حيث شكا إلى السلطان خشقدم[٣] سوء أحوال رعاياه بسبب سوء مباشرة «ناظر أوقاف القدس والخليل»[٤]، فأُعلِم بأن السلطان سيرسل من يكشف عن ناظر الأوقاف[٥] ويحاسبه[٦]، ولم تشر المصادر التاريخية هل حوسب ناظر الأوقاف أم لا ؟!

وفى عام ٨٩٢هـ/١٤٨٦م عندما زاد ظلم نائب القدس خضر بك[٧] ـ من سفكه للدماء

= فى العصر المملوكى مدينة عظيمة محكمة البناء، وكانت إحدى نيابات الشام من الناحية الإدارية، انظر: محمد محمد حسن «موسوعة بيت المقدس والمسجد الأقصى» ح ٢ ص ٧٦٣، دار الأهلية للنشر، عمان، الأردن، ط ١ (٢٠٠٣م)، شفيق جاسر «العلاقة بين المسلمين والمسيحيين منذ الفتح الإسلامى حتى الحروب الصليبية» ص ٤، دكتوراة، آداب عين شمس، ١٩٨٠م.

(١) **الخليل**: هى قرية «جبرون» وهى تجاه بيت المقدس مما يلى القبلة، ولقد أُطلِق على هذه القرية اسم «الخليل» لأن الخليل إبراهيم ـ عليه السلام ـ دُفِن بها، انظر: برهان الدين الفزارى «إبراهيم بن عبد الرحمن «ت ٧٢٩هـ»» «باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس» ص ٧٧، تحقيق د. عبد الحميد صالح، مكتبة مدبولى، القاهرة، ط ١ (٢٠٠٣م)، مجير الدين الحنبلى «الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل» ح ٢ ص ٧٦.

(٢) سراج الدين عمر: عمر بن محمد بن على الجعبرى الخليلى، شيخ حرم سيدنا الخليل ـ عليه السلام ـ، تفقه ببلده، والقاهرة، درس وأفتى بالقدس، توفى ٨٩٣هـ، انظر: مجير الدين الحنبلى: «الأنس الجليل» ح ٢ ص ٢٠٩.

(٣) خشقدم: انظر: ص ١٢.

(٤) **ناظر أوقاف القدس والخليل**: هو الذى يتولى النظر فى كل ما يحتاج إليه الحرم الشريف بالقدس وحرم الخليل من إصلاح وترميم، فضلًا عن رواتب القائمين بالعمل فيهما، والإشراف والتصرف فى الأموال المخصصة للأوقاف الخاصة بهذين الحرمين، ونظرًا لأهمية تلك الوظيفة، كان فى الغالب لا يتولاها إلا نائب القدس أو كبار العلماء، انظر: د. على السيد «القدس فى العصر المملوكى» ص ٥١، دار الفكر للدراسات، القاهرة، ط ١ (١٩٨٦م).

(٥) لم تحدد المصادر التاريخية اسم ناظر الأوقاف.

(٦) البقاعى «إظهار العصر».

(٧) خضر بك: كان متوليًا نيابة القدس عام ٨٩٢هـ، ثم عزل ثم تولى عام ٨٩٦هـ، وأظهر فى الولاية الأخيرة العدل، توفى ٨٩٧هـ، انظرك مجير الدين «الأنس الجليل» ح ٢ ص ٢٧٩.

وأخذ أموال أهالى القدس بغير حق[١] ـ، فكتب العالم نجم الدين بن جماعة[٢] إلى السلطان قايتباى[٣] يخبره بسوء سيرته ويطالب بعزله، فعزله السلطان[٤].

أمّا ثالث المظالم التى عانى المصريون والشاميون منها فى ظل حكم المماليك مظالم الجُلبان، وهم المماليك الذين يجلبهم ويشتريهم السلطان أو الأمراء وكان معظمهم فوق سن البلوغ، ولقد عانى المصريون من أذى وظلم هؤلاء الجلبان الذين اعتادوا على مهاجمة الأسواق والطرقات والمنازل من أجل النهب والسلب وخطف النساء وغير ذلك[٥]، كما حدث بمصر عام ٨٦٠هـ/١٤٥٥م[٦]، ٨٦٥هـ/١٤٦٠[٧]، ٨٧٧هـ/١٤٧٢م[٨].

ولقد قاوم المصريون هؤلاء الجلبان ـ قدر طاقتهم ـ، ومن ذلك ما حدث عام ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م عندما حاول الجلبان نهب الاسواق وخطف النساء فقام المصريون بمهاجمتهم بالحجارة وقضبان الحديد، فاضطروهم إلى الفرار[٩]، ومن ذلك ما ذكره ابن إياس عام ٩٢١هـ بأنه «نودى فى القاهرة لا سوقى ولا تاجر يبهدل مماليك السلطان، ولا يمسك

---

(١) مجير الدين الحنبلى «الأنس الجليل» ح ٢ ص ٢٧٩.

(٢) نجم الدين بن جماعة: محمد بن إبراهيم، جُمِع له بين القضاء والتدريس بالقدس، كما تولى خطابة المسجد الأقصى، توفى ٩٠١هـ، انظر: الغزى «الكواكب السائرة» ص ٢٥.

(٣) قايتباى: انظر: ص ٢٢.

(٤) مجير الدين الحنبلى «الأنس الجليل» ح ٢ ص ٣٤٩.

(٥) د. عبد المنعم ماجد «التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك» ص ١٣٢، د. عبد العزيز محمود «الرق فى مصر فى العصور الوسطى» ص ٤٤، مكتبة نهضة الشرق، ١٩٨٣م، هدية إمام «المماليك الجلبان ودورهم فى عصر دولة المماليك الجراكسة» ص ١٦٧، ماجستير، آداب القاهرة، ٢٠٠٣م، د. ليبية إبراهيم «الفتن والقلاقل الداخلية فى دولة سلاطين المماليك» ص ١٧٦، دكتوراة، آداب القاهرة، ١٩٩٩م.

(٦) ابن تغرى «حوادث الدهور» ح ٢ ص ٢٥١ «طبعة كاليفورنيا».

(٧) البقاعى «إظهار العصر».

(٨) عبد الرحمن محمود «قايتباى المحمودى» ص ١٠٢، الهيئة المصرية العامة للكتاب «سلسلة الأعلام» رقم (٢٠)، عام ١٩٧٨م.

(٩) عبد المنعم ماجد «التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك» ص ١٣٩.

لأحد منهم فرس، ومن فعل ذلك قطعت يده ...»[١]، وهذا يوضح أن مقاومة المصريين لهؤلاء الجلبان كانت قائمة درءًا من أنفسهم وأموالهم وأعراضهم.

أمّا عن علماء مصر ودورهم فى كبح جماح فساد هؤلاء الجلبان، فلقد تمثل فى مطالبة السلطان بردع هؤلاء الجلبان وحبس روؤس الفساد منهم أو نفيهم من البلاد، ومن ذلك ما ذكرته المصادر التاريخية عام ٨٦٠هـ/١٤٥٥م عندما زاد فساد الجلبان من حيث تعرضهم للمصريين بشتى أنواع الأذى من السلب والنهب، فصعد العلماء ـ وكان غالبهم من كبار علماء الحنفية[٢] ـ، وخاطبوا السلطان إينال[٣] بكلام حاد ـ على حد تعبير ابن تغرى ـ لردع هؤلاء الجلبان، بحبس أكابرهم، فاستجاب السلطان إينال لهم، فحبس روؤس الفساد، وضرب بعضهم فارتدعوا وكفوا عن فسادهم، «وضج الناس للعلماء بالدعاء، وأكثروا الثناء عليهم»[٤].

وفى عام ٨٦٥هـ/١٤٦٠م يتكرر المشهد السابق من أذى الجلبان للمصريين، فتصدى لهم عالمان جليلان هما سعد الدين الديرى[٥]، أمين الآقصراى[٦]، حيث خاطبا السلطان أحمد بن إينال بشأن فساد الجلبان، فاستجاب السلطان لهما ونفى روؤس الفساد وضرب جماعة منهم[٧].

أمّا عن مظالم هؤلاء الجلبان ببلاد الشام، فلم تشر المصادر التاريخية لهؤلاء الجلبان وطبيعة علاقاتهم بالشاميين، ولكن جاء ذكر عام عنهم فى مُؤلَفين لعالمين من علماء دمشق

---

(١) لطفى أحمد «الدور السياسى للشعب المصرى فى عصر المماليك الجراكسة» ص ٣٩٨، دكتوراة، آداب عين شمس، ١٩٩٩م.

(٢) لم يذكر ابن تغرى علماء بأعينهم، واكتفى بقوله: «أن غالبهم من كبار علماء الحنفية».

(٣) إينال: انظر: ص ١٠.

(٤) ابن تغرى «حوادث الدهور» ح ٢ ص ٢٧٨ «طبعة كاليفورنيا».

(٥) سعد الدين الديرى: انظر: ص ١٣.

(٦) أمين الآقصراى: انظر: ص ٢٣.

(٧) أحمد بن إينال: انظر: ص ١٢.

(٨) البقاعى «إظهار العصر».

فى القرن التاسع الهجرى[١] ، حيث أوضح هذان العالمان فى مُؤلفيهما أن هؤلاء الجلبان الحقوا بالشاميين شتى أنواع الظلم من سلب ونهب[٢] ، وذلك بشكل مجمل وعام لا يظهر فيه موقف أهالى الشام وعلماءها من ظلم هؤلاء الجلبان .

أما رابع المظالم التى عانى المصريون والشاميون منها فى ظل حكم المماليك « السُخرة » ، حيث كان ولاة الأمر « المماليك » لا يجدوا مانعًا فى تسخير العامة بأعمال البناء والإصلاح عن طريق القوة والإجبار دون أجر[٣] .

ولقد قاوم العلماء ذلك الظلم ، ومن ذلك ما تذكره المصادر التاريخية عام ٨١٩هـ/ ١٤١٦م عندما شرع السلطان المؤيد شيخ[٤] فى بناء مسجده[٥] ، حيث قام شاد العمائر[٦]

---

(١) هذان العالمان هما تقى الدين الحصنى « ت ٨٢٩هـ » ، وتقى الدين البلاطنسى « ت ٩٣٦هـ » ، أمّا المؤلفان فهما « قمع النفوس » لتقى الدين الحصنى ، و « تحرير المقال فيما يحل ويحرم من بيت المال » لتقى الدين البلاطنسى .

(٢) تقى الدين الحصنى « أبو بكر بن محمد « ت ٨٢٩هـ » » « قمع النفوس » ص ١٧، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٩٩٥ تصوف) ، ومكروفيلم برقم (٣٤٩٨٤) ، تقى الدين البلاطنسى « محمد بن عبد الله « ت ٩٣٦هـ » » « تحرير المقال فيما يحل ويحرم من بيت المال » ص ١٠٥، تحقيق فتح الله محمد ، دار الوفاء ، المنصورة ، ١٩٨٩م .

(٣) تقى الدين الحصنى « قمع النفوس » ص ٨٨، محمد كرد « خطط الشام » ح ٥ ص ٦٧، د. حياة ناصر « احوال العامة » ص ٣٠٢، د. البيومى إسماعيل « مصادرة الأملاك فى الدولة الإسلامية زمن سلاطين المماليك » ص ١٣٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، « سلسلة تاريخ المصريين رقم (١١١) ، د. خلف عبد العليم « الحياة الاقتصادية فى بلاد الشام » ١٤٦، د. ليبية إبراهيم « الفتن والقلاقل » ص ١٠٢.

(٤) المؤيد شيخ : أبو النصر شيخ المحمودى ، تولى كرسى السلطنة عام ٨١٥هـ ، وظل متوليًا حتى وفاته ٨٢٤هـ ، انظر : ابن شاهين « نزهة الأساطين » ص ١٢٦.

(٥) ذلك المسجد هو جامع المؤيد شيخ الذى شرع فى عمارته فى الخامس من صفر عام ٨١٩هـ ، وتم افتتاحه رسميًا ٢١ شوال ٨٢٢هـ ، ولقد تكلف بناء هذا الجامع ٤٠٠ ألف دينار ، ولقد أوقف شيخ عليه الأوقاف الهائلة بمصر والشام ، انظر : د. فهمى عبد العليم « جامع المؤيد شيخ » ص ٢٣.

(٦) **شاد العمائر** : هو القائم على عمارة الأماكن السلطانية ، ويقال له ناظر العمارة أيضًا ، ولهذا الشاد الأمر على المهندسين والنجارين والحجارين ، وما تحتاج إليه العمارة ، انظر : ابن كنان « محمد بن عيسى « ت ١١٥٣هـ » » « حدائق الياسمين فى ذكر قوانين الخلفاء والسلاطين » ص ١٣٦، تحقيق عباس صبّاغ ، دار النفائس ، بيروت ، ط ١ (١٤١٢هـ/١٩٩١م) .

بتسخير المصريين فى عمارة هذا المسجد ، فصعد العالم شرف الدين التبانى[١] إلى السلطان شيخ وأخبره بذلك ، فأمر السلطان شيخ أن لا يُسخر أحد فى عمارة مسجده[٢] .

وفى عام ٨٤٦هـ/١٤٤٢م قامت السلطة المملوكية بتوسيع الطرقات والشوارع بمدينة القاهرة[٣] وإزالة المخلفات منها وهدم ما أُنشئ فى هذه الشوارع بغير طريق شرعى ، وذلك بعد استفتاء العلماء الذين أجازوا لهم ذلك[٤] ، ولكن حدث أثناء ذلك تسخير المصريين فى هذا العمل ، فصعد العلماء للسلطان جقمق[٥] ، وأخبروه بأن تسخير المصريين فى هذا العمل غير جائز شرعًا وطالبوه برفع ذلك الظلم ، فاستجاب السلطان جقمق للعلماء[٦] .

وعلى الرغم من أن المصادر التاريخية لم تذكر لنا حوادث بعينها تدل على مقاومة علماء الشام السُخرة ، إلا أن المصادر التاريخية أوردت لنا فى ثنايا تراجم علماء الشام وكذا علماء مصر عبارات تشهد بأن علماء الشام وعلماء مصر خلال القرن التاسع كافحوا بلسانهم مظالم المماليك بشكل عام سواء كانت مالية أو صادرة عن الجلبان أو متمثلة فى السخرة ، ولاشك أن هذه العبارات التى أوردها المؤرخون ـ على الرغم من كونها مقتضبة وموجزة ـ

---

(١) شرف الدين التبانى : محمد بن يعقوب ، تفقه على شيوخ عصره ، درس ، وتولى وكالة بيت المال والحسبة بمصر ، توفى ٨٢٧هـ ، انظر : المقريزى « السلوك » ح ٤ ص ٦٧٣، ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٨ ص ٦٢.

(٢) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٧ ص ٣٠٨.

(٣) **القاهرة** : بناها القائد جوهر المعزّى لمولاه المعز بن المنصور بن المهدى الفاطمى عام ٣٥٨هـ ، ولقد اهتم بعمارتها الفاطميين وكذا الأيوبيين ، وبلغت أوج ازدهارها عهد المماليك لكونها عاصمة الدولة ومقر السلطان ، انظر : القلقشندى « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » ح ٣ ص ٣٤٤، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة ، « د. ت » .

(٤) أشارت تعاليم الإسلام إلى حق الطريق ، وعدم التعدى عليه بأى شكل من الأشكال ، ولقد تناول علماء القرن التاسع هذا الموضوع بالتقعيد الفقهى وأفردوا له المؤلفات ، وكثرت الفتاوى التى صدرت عنهم فى ذلك الشأن ، وسوف يتناول الباحث هذا الموضوع بشىء من التفصيل بفصل « العلماء والحياة الاجتماعية والدينية » عند الحديث عن العلماء والعمران .

(٥) جقمق : انظر : ص ٨.

(٦) ابن شاهين « الروض الباسم » ص ٦٤، ٦٥، ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٩ ص ١٨١، ١٨٢.

تمثل دليلًا جديدًا ـ يضاف إلى ما تم ذكره ـ يدحض الآراء القائلة بأن علماء مصر والشام أداة استخدمها المماليك لإسباغ الشرعية على المظالم التى ارتكبوها فى حق المصريين والشاميين[١]، أو أنهم لم يكافحوا السلطة المملوكية بألسنتهم لرفع تلك المظالم، وأنهم التزموا الصمت[٢].

أولًا: ما أورده المؤرخون فى تراجم علماء مصر من عبارات تؤكد قيامهم بمجاهدة السلطة المملوكية باللسان:

لقد ذكرت المصادر التاريخية فى ثنايا ترجمة العالم شمس الدين الديرى[٣] «كانت له معارك ضارية ضد الأمراء يكفهم عن الظلم، ذلك والسلطان والأمراء خاضعون له»[٤].

ومن ذلك أيضًا ما ورد فى ترجمة العالم سعد الدين الديرى[٥] «كان يتصدى لظلم السلطان والأمراء فيردعهم»[٦] ولذلك لقبه المصريون بـ«سلطان العلماء»[٧].

وكذا العالم أبو هريرة بن النقاش[٨] ـ خطيب جامع ابن طولون[٩] ـ الذى ذكرت المصادر

---

(١) د. قاسم عبده قاسم «عصر سلاطين المماليك» ص ١٨، دار الشروق، القاهرة، ط ١ (١٩٩٤م)، د. قاسم عبده «بعض مظاهر الحياة اليومية فى عصر سلاطين المماليك» ص ٧، دار المعارف للطباعة، تونس، «د. ت»، د. علاء طه «عامة القاهرة فى عصر سلاطين المماليك» ص ٨٤.

(٢) ايرالابدوس «مدن إسلامية فى عهد المماليك» ص ٢٤٠، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٨٧م، جيرار ديجورج «دمشق من عصور ما قبل التاريخ إلى الدولة المملوكية» ص ٢١٧، ترجمة محمد رفعت عواد، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥م.

(٣) شمس الدين الديرى: محمد بن سعد، تفقه بشيوخ عصره، درس وأفتى، ولى قضاء الحنفية بمصر، وباشر بعفة، توفى ٨٢٧هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٤ ص ١٥.

(٤) التميمى «تقى الديت «ت ١٠١٠هـ»» «الطبقات السنية فى تراجم الحنفية» ح ٤ ص ١٥، دار الرفاعى، الرياض، ١٩٨٣م، ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٨ ص ٦٠، السخاوى «الضوء اللامع» ح ٤ ص ١٥.

(٥) سعد الدين الديرى: انظر: ص ١٣.

(٦) البقاعى «إظهار العصر»، ابن تغرى «المنهل الصافى» ح ٥ ص ٣٨٩، الغزى «الطبقات السنية فى تراجم الحنفية» ح ٤ ص ٢٢.

(٧) ابن شاهين «الروض الباسم فى حوادث العمر والتراجم» ص ٥٨.

(٨) أبو هريرة النقاش: انظر: ص ٢٦.

(٩) جامع ابن طولون: انظر: ص ٢٧.

التاريخية فى ثنايا ترجمته « ظل يجاهر بظلم السلطة المملوكية من فوق منبر جامع ابن طولون ، والسلطان عاجز عن عزله لحُبّ المصريين له »[١] .

هذه فقط نماذج لأقوال المؤرخين التى تشهد بالدور الكفاحى الذى مارسه هؤلاء العلماء لدرء المظالم عن المصريين بلسانهم ، حيث أثبت المؤرخون هذا الدور الكفاحى لكثير من علماء مصر فى ثنايا تراجمهم أمثال سراج الدين البلقينى[٢] « ت ٨٠٥هـ » ، علاء الدين البخارى[٣] « ت ٨٤١هـ » ، أبى القسم النويرى[٤] « ت ٨٥٧هـ » ، تقى الدين المنفلوطى[٥] « ت ٨٨١هـ » ، زكريا الأنصارى[٦] « ت ٩٢٦هـ » ، وجمال الدين عبد القادر « ت ٩٣١هـ »[٧] .

ثانيًا : ما أورده المؤرخون فى تراجم علماء بلاد الشام من عبارات تؤكد قيامهم بمجاهدة السلطة المملوكية باللسان :

ففى « دمشق » نجد ـ على سبيل المثال ـ ما ذكرته المصادر التاريخية فى ثنايا ترجمة العالِم شهاب الدين الباعونى[٨] ـ خطيب الجامع الأموى[٩] ـ « كان له حكايات مع أمراء دمشق

---

(١) الغزى « بهجة الناظرين فى تراجم الشافعية المتأخرين » ص ١٢٦، ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٧ ص ٢٣٢، ابن قاضى شهبة « طبقات الشافعية » ص ٢٧٠، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ١٤١، المقريزى « درر العقود الفريدة فى تراجم الأعيان المفيدة » ح ٢ ص ٢٤٣، تحقيق د. محمود الجليلى ، دار الغرب الإسلامى ، بيروت ، ط ١ (٢٠٠٢م) .

(٢) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٦ ص ٨٩، ابن حجر العسقلانى « إنباء الغمر » ح ٥ ص ١٠٧، ابن شهبة « طبقات الشافعية » ح ٢ ص ٢٧٥.

(٣) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٩ ص ٢٣، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٥ ص ٤٢.

(٤) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٩ ص ٢٤٨.

(٥) ابن شاهين « عبد الباسط بن خليل « ت ٩٢٠هـ » » « المعجم المفنن بالمعجم المعنون » ص ٥٤، مخطوطة بمكتبة الإسكندرية برقم (٨٠٠ب) .

(٦) الغزى « الكواكب السائرة » ص ١٩٦.

(٧) الشعرانى « لواقح الأنوار » ص ٥٦.

(٨) شهاب الدين الباعونى : أحمد بن ناصر بن خليفة ، تفقه بشيوخ عصره ، ولى قضاء دمشق وخطابة الجامع الأموى بدمشق ، توفى ٨١٦هـ ، انظر : ابن شهبة « طبقات الشافعية » ح ٢ ص ٢٦٣.

(٩) **الجامع الأموى** : هو الجامع الذى أنشأه الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك عام ٨٩هـ ، ولقد انفق الوليد =

يصدهم فيها عن الظلم، وينتصر فيها عليهم، وظل يجاهر بظلمهم من فوق منبر الجامع الأموى »[١].

وكذا العالم نجم الدين الحسبانى[٢] الذى ذكرت عنه المصادر التاريخية « كان له معارك ضارية ضد أمراء دمشق ونوابها، وبخاصة نائب دمشق تنبك العلائى[٣] »[٤]، ولقد أدى كفاح هذا العالم ضد أمراء دمشق ونوابها إلى كثرة شكاوى هؤلاء للسلطان برسباى[٥] لردعه فأرسل لهم مرسوما عام ٨٣٠هـ/١٤٢٦م بعدم الاقتراب والمساس منه بسبب مكانته فى قلوب أهالى دمشق[٦]، فلما عجز المماليك عن التصدى له علنًا، قامت باغتياله عام ٨٣٠هـ/١٤٢٦م، حيث اتّهم أهالى دمشق السلطة المملوكية بأنها وراء مقتله المريب[٧].

وهذه فقط نماذج للأقوال التى أوردها المؤرخون فى ثنايا تراجم علماء دمشق، حيث أثبت المؤرخون هذا الدور الكفاحى لكثير من علماء دمشق أمثال تقى الدين الحصنى « ت ٨٢٩هـ »[٨]، وشمس الدين البلاطنسى « ت ٨٦٣هـ »[٩]، والزين أبو الفرج

= فى عمارته أموالًا طائلة، وكان هذا الجامع فى العصر المملوكى يدرس فيه فنون العلم من تفسير وحديث ونحو ذلك، انظر: ابن بطوطة « رحلة ابن بطوطة » ص ٩٤، د. محمد أحمد دهمان « مدارس دمشق وحماماتها » ص ٣٢٠، مقال بمجلة المجمع العلمى العربى، دمشق، عدد رمضان، ١٣٦٦هـ.

(١) ابن شاهين « المعجم المفنن » ص ٣٥، ابن خطيب الناصرية « الدر المنتخب فى تكملة تاريخ حلب » ص ١٣٣، ابن شهبة « طبقات الشافعية » ح ٢ ص ٢٦٣، ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٧ ص ١٢٤، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٢ ص ٢٣١.

(٢) نجم الدين الحسبانى: انظر: ص ٢٧.

(٣) تنبك العلائى: تنبك بن عبد الله العلائى، ولى نيابة دمشق ٨١٩هـ، واستمر حتى عام ٨٢٢هـ ثم تولى عام ٨٢٤هـ حتى وفاته ٨٢٦هـ، وكان من المفسدين، انظر: ابن تغرى « المنهل الصافى » ح ٤ ص ١٣.

(٤) ابن شهبة « طبقات الشافعية » ح ٢ ص ٣٢٣، ابن طولون « قضاة دمشق » ص ٣٦.

(٥) برسباى: انظر: ص ١٠.

(٦) ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٤١.

(٧) ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٤٣.

(٨) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٨ ص ١١١، ابن شهبة « طبقات الشافعية » ح ٢ ص ٣٠٨.

(٩) البقاعى « عنوان الزمان » ح ٢ ص ٥٨٤، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٨ ص ٨٦.

« ت ٨٥٦هـ »[١]، وتقى الدين ابن عجلون « ت ٩٢٨هـ »[٢]، ورضى الدين أبو الفضل « ت ٩٣٥هـ »[٣].

وبـ « القدس » نجد على سبيل المثال ـ ما ذكرته المصادر التاريخية فى ثنايا ترجمة العالِم شهاب الدين الرملى[٤] « كانت له معارك ضارية مع الأمراء وبخاصة نائب القدس طوغان[٥] »[٦]، وكذا العالِم تقى الدين أبو بكر[٧] الذى ورد فى ثنايا ترجمته « كان يأمر بالمعروف ويُخلص المظالم من نواب القدس »[٨].

ومن علماء القدس الذين أورد المؤرخون فى تراجمهم أمثال هذه العبارات التى تثبت كفاحهم لمظالم المماليك ـ على سبيل المثال ـ العالم ابن أبى الوفا[٩] « ت ٨٦٥هـ »[١٠]،

---

(١) ابن مكى « محمد بن عبد الله « ت ١٢٩٥هـ » » « السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة » ح ٢ ص ٤٨١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩٦م.

(٢) الغزى « الكواكب السائرة » ح ١ ص ١١٥.

(٣) ابن طولون « ذخائر القصر فى تراجم نبلاء العصر » ص ٤٨٣، مخطوطة بدار الكتب المصرية، برقم (٢٥٣٦٤).

(٤) شهاب الدين الرملى : أحمد بن حسين بن أرسلان، تفقه على شيوخ عصره، حتى صار إمامًا متقدمًا فى الفقه والتفسير والحديث، توفى ٨٤٤هـ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٢٨٥.

(٥) طوغان : طوغان بن عبد الله العثمانى، تولى نيابة القدس ثم نيابة غزة حتى توفى بها عام ٨٥٢هـ، وكان من الظالمين، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ١١.

(٦) ابن شاهين « المعجم المفنن » ص ٨٥، مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ١٧٤، البقاعى « عنوان الزمان » ح ١ ص ١٥، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٢٨٥.

(٧) تقى الدين أبو بكر : أبو بكر بن محمد بن على، تفقه على شيوخ عصره، درس وأفتى، وكان من كبار فقهاء القدس، ولد ٧٣٦هـ، انظر : البقاعى « عنوان الزمان » ح ١ ص ١٧٧.

(٨) البقاعى « عنوان الزمان » ح ١ ص ١٧٧.

(٩) أبو الوفاء العراقى : أبو بكر بن محمد، تفقه على شيوخ عصره، كان كثير الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتخليص المظالم من نواب القدس، ولد ٧٩٣هـ، انظر البقاعى « برهان الدين « ت ٨٨٥هـ » » « عنوان الزمان بتراجم الشيوخ والأقران » ح ٢ ص ١٢٢، مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١١ ص ٨٤.

(١٠) السخاوى « الضوء اللامع » ح ١١ ص ٨٥، البقاعى « عنوان الزمان » ح ٢ ص ١٢٢.

والعالم سعد الله الفارسى « ت ٨٩٠هـ »[١] .

أمّا « حلب » فنجد ـ على سبيل المثال ـ ما ذكرته المصادر التاريخية فى ثنايا ترجمة العالم أبو زرعة الأنصارى[٢] ـ خطيب المسجد الجامع[٣] ـ « كان يجاهر بظلم السلطة المملوكية حتى أنه صرح بمظالم السلطة المملوكية فى جرأة وشجاعة ـ وهو يخطب بجامع حلب ـ على مسامع السلطان المؤيد شيخ[٤] ، وذلك دون أن يخاف بأسه وعقابه »[٥] .

وكذا ما جاء فى ثنايا ترجمة العالم ابن أبى البركات[٦] « كان لا يخشى بأس المماليك وظل يجاهر بمظالمهم ، لا تأخذه لومة لائم »[٧] .

أما طرابلس الشام[٨] فنجد ـ على سبيل المثال ـ ما ورد فى ثنايا ترجمة العالم تاج الدين

---

(١) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٣ ص ٢٤٧.

(٢) أبو زرعة الأنصارى : محمد بن موسى الأنصارى ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى خطابة الجامع الكبير بحلب ، توفى ٨٢٥هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١٠ ص ٦٥.

(٣) **المسجد الجامع** : ويسمى ـ أيضًا ـ الجامع الكبير ، اختطه الصحابة عندما فتح أبو عبيدة الجراح ـ رضى الله عنه ـ مدينة حلب ، ثم جدد بناءه الخليفة سليمان بن عبد الملك « ت ٩٩هـ/٧١٧م » ، وقيل إنما هو الوليد بن عبد الملك « ت ٩٦هـ/٧١٥م » ، ولم يبق من البناء الأموى سوى السور ، وكان هذا الجامع يضاهى جامع دمشق فى الزخرفة والرخام ، وبناءه الحالى يرجع للعهد المملوكى باستثناء منارته التى يرجع تاريخها إلى سنة ٤٨٢هـ/١٠٨٩م ، انظر : ابن العجمى « كنوز الذهب » ح ١ ص ٢٠٦، حامد زيان « حلب فى العصر الزنكى » ص ١٧٠، ماجستير ، آداب القاهرة ، ١٩٧٠م ، د. عبد الرحمن سليمان « الحياة العلمية فى القرنين السابع والثامن الهجريين » ، ص ٩٧، د. أحمد رمضان « العمائر الدينية فى بلاد الشام فى العصر الأيوبى والمملوكى » ص ١٣٢، مقال بمجلة كلية الآثار « عدد خاص » عام ١٩٧٨م .

(٤) المؤيد شيخ : انظر : ص ٣٧.

(٥) ابن الحنبلى « محمد بن إبراهيم « ت ٩٧١هـ » » « در الحبب فى أعيان حلب » ح ٢ ص ٢٧، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، برقم (١٨٤١٩) .

(٦) ابن أبى البركات : محمد بن على ، تفقه على شيوخ عصره ، درس وأفتى بحلب ، توفى ٨٢٦هـ ، انظر : ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٦ ص ٧٠.

(٧) محمد راغب « إعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء » ح ٥ ص ١٧٣، دار العلم العربى ، حلب ، ١٩٢٣م .

(٨) طرابلس الشام : سبق التعريف بها ، انظر : ص ١٥.

عبد الوهاب[1] « تصدى لأمراء طرابلس فأردعهم وكفهم عن الظلم ، وظل يجاهر بظلمهم من على روؤس المنابر »[2] .

* العلماء وثورات المصريين والشاميين ضد الولاة والنواب :

لقد عرف تاريخ الفقه الإسلامى فى مسألة الخروج على السلطة الحاكمة بالقوة والثورة عليها اتجاهين رئيسيين :

الاتجاه الأول : « مدرسة الصبر » :

يُعرف هذا الاتجاه بـ « مدرسة الصبر » ، وذلك لأن هذا الاتجاه لا يجيز الخروج على السلطة الحاكمة الجائرة بالقوة « اليد » ، وأنه يجب الصبر على ظلمه ، وذلك خوفًا من الفتن ، وتقتصر معارضة الحاكم الجائر فى رأى هذا الاتجاه على اللسان فقط ، ويُمثل هذا الاتجاه غالبية علماء أهل السنة[3] ، كالإمام مالك بن أنس « ت ١٧٩هـ »[4] ، والإمام أبو حامد الغزالى « ت ٥٠٥هـ »[5] .

---

(١) تاج الدين عبد الوهاب : عبد الوهاب بن محمد بن يحيى بن زهرة ، تفقه بشيوخ عصره ، درس وأفتى ، وخطب بطرابلس ، توفى ٨٩٥هـ ، انظر : ابن الملا الحلبى « أحمد بن محمد « ت ١٠٠٣هـ » » « متعة الأذهان من التمتع بالأقران » ح ١ ص ٤٨٧ ، تحقيق صلاح الدين خليل ، دار صادر ، بيروت ، ط ١ (١٩٩٩م) .

(٢) ابن طولون « ذخائر القصر » ص ٢٥٦.

(٣) نيفين عبد الخالق « المعارضة فى الفكر الإسلامى » ص ٢٣٣ ، دكتوراة ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٣م ، زهراء محمد « الأمة وعلاقاتها بأولى الأمر : دراسة مقارنة بين الفقه السياسى الإسلامى والقوانين الوضعية » ص ٣٤٦ ، ماجستير ، كلية دار العلوم ، جامعة القاهرة ، ٢٠٠٠م .

(٤) نيفين عبد الخالق « المعارضة فى الفكر الإسلامى » ص ٢٥٧ ، زهراء محمد « الأمة وعلاقاتها بأولى الأمر » ص ٣٤٨.

(٥) الغزالى « أبو حامد محمد « ت ٥٠٥هـ » » « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » ص ٦٧ ، تحقيق سيد إبراهيم ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٩٩١م .

الاتجاه الثانى : « مدرسة التمكن » :

يُعرف هذا الاتجاه بـ « مدرسة التمكن » ، ويذهب هذا الاتجاه أن الخروج على السلطة الحاكمة الجائرة بالقوة « اليد » والثورة عليها أمر جائز شرعًا ، بل هو أمر واجب ، ولكنهم اشترطوا لهذا الخروج أن يتوفر له أسباب النجاح بحيث تأتى الثورة بالعادل الصالح مكان الظالم ، بمعنى الموازنة بين المصالح والمفاسد عند الخروج على السلطة الحاكمة ، وامتلاك الثائرين القوة والقدرة على خلع الحاكم بأقل قدر من الخسائر فى الأنفس والأموال ، ويمثل هذا الاتجاه بعض علماء أهل السنة[١] ، كالإمام أبو حنيفة النعمان « ت ١٥٠هـ »[٢] ، والإمام ابن حزم الظاهرى « ت ٤٥٦هـ »[٣] ، وابن تيمية « ت ٧٢٨هـ »[٤] .

وهنا يُثار تساؤل إلى أى اتّجاه كان علماء مصر والشام فى فترة البحث ينتمون فى مسألة الخروج على الحاكم بالقوة ؟

ذكر ابن جماعة[٥] « ت ٧٣٣هـ » فى كتابه « تحرير الأحكام فى تدبير أهل الإسام » أنه لا يجوز الخروج على الحاكم الجائر ، لأن الخروج عليه سوف يثير الفتنة ، ولقد أورد ابن جماعة رأيه السابق فى تلك المسألة خطيرة الشأن دون إيضاح وتفصيل ، مكتفيًا بقوله بعد جواز

---

(١) نيفين عبد الخالق « المعارضة فى الفكر الإسلامى » ص ٢٦٣، زهراء محمد « الأمة وعلاقاتها بأولى الأمر » ص ٣٥٣.

(٢) نيفين عبد الخالق « المعارضة فى الفكر الإسلامى » ص ٢٧٣، زهراء محمد « الأمة وعلاقاتها بأولى الأمر » ص ٣٥٣.

(٣) صلاح الدين بسيونى « ابن حزم وأراؤه الكلامية والأخلاقية » ص ٤٧٥ ـ ٤٨٢، دكتوراة ، كلية الآداب ـ قسم الفلسفة ـ ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٨م .

(٤) يذكر ابن تيمية فى ذلك الشأن ما نصُّه « إن القاعدة العامة إذا تعارضت المصالح والمفاسد فإنه يجب ترجيح الراجح منها أى الموازنة بين المصالح والمفاسد ، وذلك عند حديثه هل يجوز الخروج ـ » ، انظر : ابن تيمية « الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر » ص ٢٥، تحقيق د. محمد رشاد سالم ، مكتبة السنة ، القاهرة ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م .

(٥) ابن جماعة : محمد بن إبراهيم ، تفقه بشيوخ عصره ، من كبار فقهاء الشافعية بمصر فى عصره ، ولى قضاء الشافعية بمصر ، توفى ٧٣٣هـ ، انظر : السبكى « طبقات الشافعية الكبرى » ح ٩ ص ١٣٩.

الخروج درءًا للفتن، وأن جور الحاكم يجب أن يقابله الصبر من الرعية «المحكومين»[١].

وما ذكره ابن جماعة ذكره القلقشندى[٢] «ت ٨٢١هـ» فى كتابه «مآثر الإنافة فى معالم الخلافة» حيث أيد رأى ابن جماعة ـ السابق ذكره ـ، مضيفًا أن هذا الرأى هو ما يراه غالب علماء الشافعية[٣].

أمّا عن كتابات علماء الشام التى تعرضت لهذه القضية، فنجد العالم الزين أبو الروح[٤] «ت ٨٥٦هـ» فى كتابه «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» يذكر ـ أيضًا ـ أن معارضة الحاكم الجائر تقتصر على اللسان ولا تتعدى إلى اليد «القوة» خشية الفتنة[٥].

وما ذكره الزين أبو الروح ذكره ابن المبرد[٦] «ت ٩٠٩هـ» فى كتابه «ذم الهوى والذعر فى أحوال الزعر[*]»، حيث يرى أنه لا يجوز الخروج على السلطة الجائرة بالقوة لأن ذلك

---

(١) ابن جماعة «تحرير الأحكام فى تدبير أهل الإسلام» ص ٤.

(٢) القلقشندى: أحمد بن عبد الله، تفقه بشيوخ عصره، وكان إمامًا وفقيهًا، وناب فى القضاء بمصر، وهو صاحب كتاب «صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء»، توفى ٨٢١هـ، انظر: ابن تغرى «المنهل الصافى» ح ١ ص ٣٥١.

(٣) القلقشندة «مآثر الإنافة فى معالم الخلافة» ص ٧٢.

(٤) الزين أبو الروح: عبد الرحمن بن أبى بكر، تفقه على شيوخ عصره، درس وأفتى، وكان من كبار علماء الحنابلة بدمشق، توفى ٨٥٦هـ، انظر: ابن مكى «السحب الوابلة على ضرائح الحنابلة» ح ٢ ص ٤٨١، السخاوى «الضوء اللامع» ح ٤ ص ٦٢.

(٥) الزين أبو الروح «الكنز الأكبر فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» ص ٧٣.

(٦) ابن المبرد: يوسف بن الحسن، تفقه على شيوخ عصره، كان إمامًا بارزًا فى الحديث والتفسير، ورأس علماء الحنابلة بدمشق فى عصره، درس وأفتى، وصنف تصانيف عديدة، توفى ٩٠٩هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ١٠ ص ٣٠٨، ابن مكى «السحب الوابلة» ح ٣ ص ١١٦٥.

(*) **الزعر**: لفظ أُطلق على شريحة من شرائح مجتمع دمشق فى العصر المملوكى، وكانت هذه الفئة عبارة عن عصابات منظمة مارست أعمال النهب والسلب فى المجتمع الدمشقى، ولقد استشرى دورهم الإجرامى منذ أواخر القرن التاسع، وأوائل القرن العاشر الهجرى، انظر: ايرالابدوس «مدن الشام فى العصر المملوكى» ص ٢٣٨، ترجمة د. سهيل زكار، دار حسان للطباعة، دمشق، ١٩٨٥م، د. أكرم حسن «نيابة دمشق عهد سيباى» ص ٦٨.

يلزم منه مفسدة عظيمة وفتح باب الفتنة[١] .

ويتبين من هذه الأقوال التى وردت عن أربعة من علماء مصر والشام فى العصر المملوكى ، أن هؤلاء العلماء كانوا ينتمون لمدرسة الصبر التى تقتصر فى معارضتها للسلطة الجائرة على اللسان دون استخدام القوة ، ويبدو أن علماء مصر والشام خلال القرن التاسع ـ فى غالبهم ـ كانوا ينتمون لمدرسة الصبر .

* العلماء وثورات المصريين والشاميين فى ضوء المصادر التاريخية :

لقد تمايزت معارضة المصريين للمماليك ، حيث كان هناك شكل للمعارضة بالقاهرة يختلف عن ذلك الشكل الذى اتسمت به معارضة باقى المصريين ـ أهالى الوجهين القبلى والبحرى ـ ، فالبنسبة لمعارضة سكان القاهرة لم ترق إلى مستوى الثورة بل هى هبّات عرضية قليلة وغير فعالة ، اخذت شكل مظاهرات سلمية الطابع كى يرفع السلطان عنهم ما يتعرضون له من مظالم[٢] ، ارتبطت غالبها بغلاء أسعار السلع الغذائية وعدم توفر الخبز بالأسواق[٣] ، فيستجيب السلطان لهم أحيانًا ، وأحيانًا أخرى لا يعبأ بهم .

ومن ذلك ما ذكرته المصادر التاريخية عام ٨٣٩هـ/١٤٣٥م من وقوف سكان القاهرة للسطان برسباى[٤] أثناء مرور موكبه ، فاستغاثوا له من قلة الخبز بحوانيت الخبازين ، بالرغم من وفرة القمح ، فلم يعبأ بهم[٥] .

---

(١) ابن المبرد « يوسف بن الحسن « ت ٩٠٩هـ » » « ذم الهوى والذعر فى أحوال الزعر » ص ٥٥، مخطوطة بدار الكتب الظاهرية بدمشق برقم (٧٣أدب) ، د. أكرم حسن « دمشق بين عصر المماليك » ص ٩٦.

(٢) د. عبد المنعم ماجد « التاريخ السياسى لدولة سلاطين المماليك » ص ١١٩، د. علاء طه « عامة القاهرة فى عصر سلاطين المماليك » ص ٧٥، حنفى محمود « الحركات الداخلية فى الدولة المملوكية الأولى » ص ١٧٣، ماجستير ، آداب القاهرة ، ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م .

(٣) د. حياة ناصر « أحوال العامة فى حكم المماليك » ص ٢٦٤، ايرا لابدوس « مدن إسلامية فى عهد المماليك » ص ٢٣٩، د. ليبية إبراهيم « الفتن والقلاقل » ص ١١٥.

(٤) برسباى : انظر : ص ١٠ .

(٥) ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٣ ص ٣٣٨.

ولقد تكرر المشهد السابق من سكان القاهرة عام ٨٧٧هـ/١٤٧٢م، حيث شكوا للسطان قايتباى[١] قلة الخبز وارتفاع كافة أسعار السلع الغذائية كالجبن واللحم، فاستجاب السلطان لشكواهم، وأمر بتوفير الخبز، وتوفير باقى السلع الغذائية بأسعار معتدلة[٢].

ولعل ضعف معارضة سكان القاهرة يرجع إلى وجود السلطان المملوكى وإحكام قبضته العسكرية على الأهالى[٣].

ولكن الأمر يختلف بالنسبة لباقى سكان مصر ـ أهالى الوجهين القبلى والبحرى ـ، حيث تذكر المصادر التاريخية إشعالهم لثورات عنيفة ضد ولاة السلطة المملوكية، كثورة أهالى البحيرة عام ٨١٩هـ/١٤١٦م[٤]، وأهالى دمياط ٨٢٠هـ/١٤١٧م[٥]، وأهالى المحلة عام ٨٢١هـ/١٤١٨م[٦]، وعام ٨٥٤هـ/١٤٥٠م[٧].

ولكن غالب هذه الثورات ـ سالفة الذكر ـ جاء حديث المصادر التاريخية عنها بشكل مقتضب يقتصر على مكان حدوث الثورة وزمان حدوثها كثورة أهالى البحيرة عام ٨١٩هـ/١٤١٦م[٨]، وثورة أهالى المحلة عام ٨٢١هـ/١٤١٨م[٩]، ولكن شذت ثورة أهالى دمياط

---

(١) قايتباى: انظر: ص ٢٢.

(٢) ابن الصيرفى «إنباء الهصر» ص ٤٧٦.

(٣) د. علاء طه «عامة القاهرة» ص ٨١، لطفى أحمد «الدور السياسى للشعب المصرى فى عصر المماليك الجراكسة» ص ٣٩٨، غادة سيد «وثائق الأوقاف على مقام السيد البدوى: دراسة دبلوماتية» ص ١٩، ماجستير، آداب القاهرة، ٢٠٠٣م.

(٤) ابن الصيرفى «نزهة النفوس» ح ٢ ص ٣٧١، المقريزى «السلوك» ح ٤ ص ٣٦٧.

(٥) ابن الصيرفى «نزهة النفوس» ح ٢ ص ٤٠٣.

(٦) ابن الصيرفى «نزهة النفوس» ح ٢ ص ٤٢١، المقريزى «السلوك» ح ٤ ص ٤٣٩.

(٧) السخاوى «التبر المسبوك فى الذيل على السلوك» ص ١٧٥.

(٨) المقريزى «السلوك» ح ٤ ص ٣٦٧، ابن الصيرفى «نزهة النفوس» ح ٢ ص ٣٧١.

(٩) المقريزى «السلوك» ح ٤ ص ٤٣٩، ابن الصيرفى «نزهة النفوس» ح ٢ ص ٤٢١.

عام ٨١٩هـ/١٤١٦م، وثورة أهالى المحلة عام ٨٥٤هـ/١٤٥٠م عن هذا العرض التاريخى الموجز لتكشف لنا مدى المعاناة التى كان يعانى منها المصريون فى ظل هؤلاء الولاة.

فلقد ذكرت المصادر التاريخية فى أحداث شهر ذى الحجة من عام ٨٢٠هـ/١٤١٧م قيام ثورة أهالى دمياط[١] على واليها محمد السيراخورى، الذى كان كثير التجبر غاية فى الظلم والطغيان والفسق، مُتسلط على حرم المسلمين ونساءهم ـ على حد تعبير ابن الصيرفى ـ، ولقد كان باعث ثورة أهالى دمياط على ذلك الوالى أنه تعرض لقوم يقال لهم «السمناوية» ـ وهم قوم يتكسبون بصيد السمك ـ، فعند تعرضه لهم خشوا من سوء فعله وفُحش صنعه، فاجتمعوا جمعًا كبيرًا ليقتلوه، ففرّ منهم، ولكنهم طاردوه ودارت معركة كبيرة بين الطرفين، انتهت بتغلب الأهالى[٢] على الوالى وقتله ـ ولم تشر المصادر التاريخية لرد فعل السلطان شيخ[٣] على مقتل واليه[٤] ـ.

أمّا ثورة أهالى المحلّة[٥] عام ٨٥٤هـ/١٤٥٠م، فلقد ذكرت المصادر التاريخية تعرض مصر لجفاف شديد بسبب عدم وفاء النيل، مما أدى إلى غلاء أسعار المواد الغذائية[٦]، ولكن أهالى المحلة قد تضاعف عليهم البلاء، حيث قام والى المحلة شهاب الدين أحمد ـ وهو أخو

---

(١) **دمياط**: مدينة على ضفة أحد فرقى النيل، وهى موضع غِرَّة للعدو من البحر، انظر: العمرى «شهاب الدين أحمد «ت ٧٤٩هـ»» «مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار» ص ٩٣، المعهد الفرنسى للآثار، القاهرة، «د. ت».

(٢) لم تذكر المصادر التاريخية دورًا للعلماء فى تلك الثورة.

(٣) شيخ: انظر: ص ٣٧.

(٤) ابن الصيرفى «نزهة النفوس» ح ٢ ص ٤٠٣.

(٥) **المحلّة**: مدينة مشهورة بديار مصر، وكانت تُسمى «محلّة دَقَلا»، ثم أصبحت فى العصر المملوكى تُعرف بـ«المحلَة» فقط، وكانت مدينة كبيرة ذات أسواق، وهى قصبة إقليم الغربية، انظر: ابن دقماق «إبراهيم بن محمد» «الانتصار لواسطة عقد الأمصار» ص ٨٢، المكتب التجارى للطباعة، بيروت، «د. ت»، البغدادى «صفى الدين عبد المؤمن «ت ٧٣٩هـ»» «مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع» ح ٣ ص ١٢٣٦، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢م.

(٦) ابن تغرى «حوادث الدهور» ح ١ ص ١٩٧، ٢٣١.

الاستادار[١] زين الدين يحيى ـ باحتكار السلع الغذائية وبخاصة القمح، فتضاعف البلاء على أهالى المحلة، فقام أهالى المحلة بالتوجه إلى مقر حكمه بالولاية وقاموا بقتله، وعندما علم أخوه الاستادار بذلك، قبض على بعض أهالى المحلة الثائرين، فثار الأهالى ضده وأوشكوا الفتك به، غير أنه نجا منهم، وصعد إلى السلطان جقمق[٢] فأخبره بثورة أهالى المحلة، فتغيَّظ السلطان وأراد النزول إليهم، ولكن قضاة[٣] مصر منعوه من ذلك، فخضع وسكن الأمر[٤].

تلك هى بعض ملامح من الظلم الذى تعرض له المصريون من هؤلاء الولاة الذين كان يتم اختيارهم لهذا المنصب ـ فى الغالب ـ مقابل مبلغ من المال يدفع لخزانة الدولة، كما تذكر لنا المصادر التاريخية فى أحداث عام ٨٥٤هـ أنَّ والى الشرقية[٥] برطل[٦] السلطان جقمق ليتولى ولاية الشرقية[٧] بمبلغ من المال ـ غير محدد ـ، فولاه جقمق[٨].

---

(١) **الاستادار**: هو المسوؤل عن قصور السلطان من المطابخ والشراب، ولكن الاستادار منذ بداية القرن التاسع الهجرى، أصبح له سلطة تولية الولاة بأقاليم الديار المصرية، انظر: القلقشندى «صبح الأعشى» ح ٤ ص ٢٠، مجدى عبد الرشيد «القرية المصرية فى عصر سلاطين المماليك» ص ٤٦، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٩م.

(٢) جقمق: انظر: ص ١١.

(٣) **قضاة مصر**: شرف الدين المناوى قاضى قضاة الشافعية، وسعد الدين الديرى قاضى قضاة الحنفية، وولى الدين السنباطى قاضى قضاة المالكية، وبدر الدين البغدادى قاضى قضاة الحنابلة، انظر: ابن تغرى «حوادث الدهور» ح ١ ص ١٩٥.

(٤) السخاوى «التبر المسبوك» ص ٣٢٢.

(٥) لم تحدد المصادر التاريخية اسم هذا الوالى.

(٦) **البرطلة**: مصطلح أطلق على «الرشوة» فى العصر المملوكى، ويعزو ابن تيمية تسمية الرشوة بذلك، بأن البرطلة من البرطيل وهو الحجر المستطيل، ولقد سميت به الرشوة، لأنها تُلقم المرتشى عن التكلم بالحق كما يلقمه الحجر الطويل، والرشوة محرمة شرعًا بالكتاب والسنّة، انظر: ابن نجيم الحنفى «الرسائل الزينية فى مذهب الحنفية» ص ٤٤، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٢١٢٣ فقه حنفى) ومكروفيلم (٤١٩٥٤)، ابن تيمية «فتاوى ابن تيمية» ح ٢٨ ص ٣٠٤.

(٧) الشرقية: انظر: ص ٣١.

(٨) ابن تغرى «حوادث الدهور» ص ٢١٨.

ذلك هو ما رصدته المصادر التاريخية عن ثورات المصريين ، أما عن دور العلماء فى تلك الثورات ، فلم تذكر المصادر التاريخية دور للعلماء فى تلك الثورات باستثناء ثورة أهالى المحلة عام ٨٥٤هـ/١٤٥٠م ، حيث ذكرت المصادر التاريخية أن العالم ولى الدين المحلى[١] ـ خطيب الجامع الغمرى[٢] ـ هو الذى قام بتأليب أهالى المحلة وتحريضهم ضد هذا الوالى ، فاستجاب الأهالى له ، وتوجهوا إلى مقر حكم الوالى وقتلوه ـ كما سبق القول ـ ، ولقد عاقبت السلطة المملوكية ذلك العالم لإشعاله تلك الثورة فحبسته ، ولكنها اضطرت إزاء غليان أهالى المحلة الذى ثار عقب القبض على عالِمهم إلى الإفراج عنه ، ومن ثمّ هدأ أهالى المحلة وسكنت ثورتهم التى قدّت مضاجع المماليك ، حتى أن السلطان جقمق كان قد عزم بالتوجه إلى المحلة لإخماد ثورة الأهالى ، ولكنه اضطر إزاء معارضة قضاة مصر إلى استخدام المهادنة والملاطفة مع الأهالى ، فأفرج عن العالم ولى الدين ومن معه من الثائرين ، فسكنت الأهالى وهدأ الأمر[٣] .

أمّا عن ثورات الشاميين ضد نوابهم ، فلقد رصدت لنا المصادر التاريخية إشعال الشاميين لثورات عنيفة ضد نوابهم خلال القرن التاسع الهجرى ، كثورة أهالى دمشق ضد نائبها عام ٨٠٤هـ/١٤٠١م[٤] ، وعام ٨٤٣هـ/١٤٣٩م[٥] ، وثورة أهالى حلب ضد نائبها عام

---

(١) ولى الدين المحلى : أحمد بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، وتولى خطابة الجامع الغمرى ، وكان كثير الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، توفى ٨٨٢هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٢ ص ٧٤.

(٢) **الجامع الغمرى** : هو الجامع الذى أنشأه أحمد أبو العباس القاهرى « ت ٩٠٥هـ » ، من متصوفة القرن التاسع الهجرى ، انظر : الغزى « الكواكب السائرة » ص ١٤٨.

(٣) السخاوى « التبر المسبوك » ص ٣٢٢.

(٤) ايرا لابدوس « مدن الشام فى العصر المملوكى » ص ٢٣٥.

(٥) ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٤ ص ١٦٩، ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٢ ص ٢٢٢.

٨١٥هـ/١٤١٢م[١]، وعام ٨٦٠هـ/١٤٥٥م[٢]، وعام ٨٨٥هـ/١٤٨٠م[٣]، وثورة أهالى طرابلس عام ٨١٥هـ/١٤١٢م[٤]، وعام ٨٢١هـ/١٤١٨م[٥]، وثورة أهالى حماة عام ٨٤٨هـ/١٤٤٤م[٦]، وعام ٨٨١هـ/١٤٧٦م[٧]، وثورة أهالى الكرك عام ٨٠٢هـ/١٣٩٩م[٨].

ولقد كان الباعث الرئيس لثورات الشاميين ـ سابقة الذكر ـ هو ذات باعث المصريين فى إشعالهم لثوراتهم ضد ولاتهم، وأعنى بذلك شَرَهْ نواب الشام لجمع الأموال من رعاياهم بشتى السبل، تعويضًا للمال الذى كان يدفعونه لخزانة الدولة مقابل تلك الوظيفة[٩].

ومن تلك الثورات التى توضح لنا شره هؤلاء النواب فى جمع الأموال، ثورة أهالى دمشق عام ٨٤٣هـ/١٤٣٩م، حيث قام نائب دمشق جُلُبَّان[١٠] الكمشبغاوى باحتكار اللحم فى الأسواق، حتى اختفى اللحم من الأسواق ـ وكان ذلك خلال شهر رمضان المكرم ـ، فقام أهالى دمشق بمهاجمة دار السعادة[١١] ـ مقر قيادة نائب دمشق ـ، واشتبكوا مع الأمراء والجنود فى قتال ضروس، ولما عجز النائب وجنوده التصدى للأهالى، لجأ إلى

---

(١) المقريزى «السلوك» ح ٤ ص ٤٣٩.

(٢) ابن العجمى «كنوز الذهب» ح ٢ ص ٢٧٧.

(٣) ابن إياس «بدائع الزهور» ص ١٧٧.

(٤) المقريزى «السلوك» ح ٤ ص ٢٥٢.

(٥) ابن الصيرفى «نزهة النفوس» ح ٢ ص ٤١٠.

(٦) ابن الصيرفى «نزهة النفوس» ح ٤ ص ٣٠٤.

(٧) ايرا لابدوس «مدن الشام فى العصر المملوكى» ص ٢٣٥.

(٨) ابن شهبة «الإعلام بتاريخ أهل الإسلام» ص ١٥٩.

(٩) وذلك ما أكده عالم دمشق تقى الدين الحصنى «ت ٨٢٩هـ»، انظر: تقى الدين الحصنى «قمع النفوس» ص ٣.

(١٠) جُلُبَّان الكمشبغاوى: جلبان بن عبد الله، وَلِىَ نيابة حماة وطرابلس، ثم دمشق عام ٨٤٣هـ، توفى ٨٥٩هـ، انظر: ابن تغرى «المنهل الصافى» ح ٥ ص ١٠.

(١١) **دار السعادة**: هى مقر نواب دمشق، ومركز الحكومة بها، وتقع فى مكان بجامع سوق الحميدية ـ حاليًا ـ، انظر: د. أكرم حسن «نيابة دمشق» ص ٣٠.

مهادنة الأهالى وتراجع عن احتكاره للحم، فسكن الأهالى[1].

ومن ذلك أيضًا، ما ذكرته المصادر التاريخية عن ثورة أهالى حلب عام ٨٥٢هـ/ ١٤٤٨م، حيث ثار أهالى حلب على نائبهم الأمير تنم المؤيدى[2] بسبب إسرافه فى أخذ أموال الأهالى بالباطل ـ كما ذكر ابن العجمى ـ، فانتفض الأهالى ضده وقاتلوه حتى اضطر إلى الفرار من حلب، ولمّا عَلِمَ السلطان جقمق[3] بذلك اضُطُر إلى إصدار مرسوم بعزله لتهدئة الأهالى[4].

أمّا عن دور العلماء فى ثورات الشاميين ضد نوابهم، فلم تذكر المصادر التاريخية دور للعلماء فى تلك الثورات ـ سابقة الذكر ـ باستثناء ثلاث ثورات، وهى ثورة أهالى دمشق عام ٨٤٣هـ/١٤٣٩م، وثورة أهالى حلب عام ٨٤٢هـ/١٤٣٧م، وثورة أهالى طرابلس عام ٨٢١هـ/١٤١٨م.

فبالنسبة لثورة أهالى دمشق عام ٨٤٣هـ/١٤٣٩م، فلقد ذكرت المصادر التاريخية أنَّ العلماء بقيادة شمس الدين ونائى[5] قاموا بمخاطبة نائب دمشق جلبان الكمشبغاوى بشأن احتكاره للّحم ـ كما سبق القول ـ، ولكن النائب لم يستجب لهم، عندئذٍ قام العالم شمس الدين الونائى بتأليب الأهالى ضده، ودعاهم للثورة ضده، فاستجاب الأهالى له،

---

(١) العينى «عقد الجمان» ص ٥٥١، المقريزى «السلوك» ح ٤ ص ١١٨١، ابن الصيرفى «نزهة النفوس» ح ٤ ص ١٦٩، ابن إياس «بدائع الزهور» ح ٢ ص ٢٢٢.

(٢) تنم المؤيدى: تولى نيابة دمشق وحماة وحلب، وكانت سيرته سيئة، مات نائبًا بدمشق عام ٨٦٨هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٣ ص ٤٤.

(٣) جقمق: انظر: ص ١١.

(٤) ابن العجمى «كنوز الذهب» ح ٢ ص ٢١٠.

(٥) شمس الدين الونائى: محمد بن إسماعيل، تفقه بشيوخ عصره، ووصفه برهان الدين البقاعى «ت ٨٨٥هـ» بأنه «بحر من العلوم»، ولى قضاء الشافعية بدمشق ٨٤٣هـ، وتوفى ٨٤٩هـ، انظر: البقاعى «عنوان الزمان» ح ٢ ص ٤٦٥.

وهاجموا مقر قيادة النائب واشتبكوا مع جنوده ، فلما عجز النائب عن إخماد ثورتهم ، لجأ إلى شمس الدين الونائى لتهدئة الأهالى ، فاستجاب الونائى له بعد أن خضع النائب لمطالبه بإبطال احتكاره للّحم ، وتوفيره بالأسواق ، ولمّا علمت السلطة المركزية بالقاهرة بما حدث ، قام السلطان جقمق[١] بعزل العالم شمس الدين الونائى من قضاء الشافعية بدمشق فقط ، حيث لم يستطع المساس به بسبب نفوذه ومكانته فى قلوب الأهالى[٢] .

أمّا ثورة أهالى حلب عام ٨٤٢هـ/١٤٣٨م ، فلقد ذكرت المصادر التاريخية أنه فى عام ٨٤٢هـ تزايد ظلم نائب حلب تغرى[٣] ورمش ، حيث أسرف فى نهب أموال الأهالى بشتى السبل ، وزاد سفكه للدماء بغير حق ، فقام علماء حلب[٤] بتقوية عزائم أهالى حلب للثورة على تغرى ورمش ، فاستجاب أهالى حلب لنداء العلماء وقاتلوا تغرى ورمش حتى طردوه من حلب ، وأرسل لهم السلطان جقمق نائب غيره[٥] .

أمّا ثورة أهالى طرابلس عام ٨٢١هـ/١٤١٨م ، فلقد ذكرت المصادر التاريخية أنّه لما شرع نائب طرابلس بُرْدَبَك[٦] فى جباية الأموال من الأهالى بغير حق ، انتفض الأهالى بالثورة ضده بقيادة قضاة[٧] طرابلس ، فقاتلوه حتى طردوه من طرابلس ، ثم أرسل القضاة إلى السلطان المؤيد شيخ[٨] بما وقع من النائب من مظالم وأنهم طردوا ذلك النائب من

---

(١) جقمق : انظر : ص ١١.

(٢) العينى « عقد الجمان » ص ٥٥١، المقريزى « السلوك » ح ٤ ص ١١٨١، ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٤ ص ١٦٩، ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٢ ص ٢٢٢.

(٣) تغرى ورمش : تولى نيابة حلب ٨٣٩هـ ، حتى قُتِلِ عام ٨٤٢هـ ، وكانت سيرته سيئة ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٣ ص ٣٥.

(٤) لم تحدد المصادر التاريخية علماء بأعينهم .

(٥) ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٤ ص ١١٢، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٥ ص ٨٧.

(٦) بُرْدَبَك : بُرْدَبَك بن عبد الله الخليلى ، تولى نيابة طرابلس ١٧ رجب ٨٢٠هـ ، ثم عزل ٨٢١هـ ، انظر : ابن تغرى « المنهل الصافى » ح ٣ ص ٢٥٠.

(٧) لم تحدد المصادر التاريخية أسماء قضاة طرابلس .

(٨) المؤيد شيخ : انظر : ص ٣٧.

طرابلس، فأرسل السلطان شيخ لهم نائب غيره[1].

ومن العرض السابق يظهر أن علماء مصر والشام خلال القرن التاسع كما أشارت أقوال بعضهم ـ كما ورد فى مؤلفاتهم ـ، وكما ظهر فى ضآلة دورهم الحركى فى ثورات المصريين والشاميين بشكل عام ـ كما أوضحت المصادر التاريخية ـ، أنهم كانوا يمثلون مذهب مدرسة الصبر التى ترى عدم جواز الخروج على الحاكم بالقوة خوفًا من الفتن، حيث تقتصر فى معارضتها للسلطة على اللسان، وذلك ما تجلّى بوضوح ـ أيضًا ـ عندما تحدث الباحث عن «العلماء والجهاد باللسان»، حيث كان الظهور الواضح للعلماء على مسرح المعارضة للسلطة الحاكمة، وذلك إذ ما قورن بدور العلماء فى ثورات المصريين والشاميين.

* العلماء وخلع السلطان المملوكى:

إذ كان المصريون والشاميون قاموا بالثورة ضد ولاتهم ونوابهم فإن محاولة تطبيق ذلك إزاء السلطان المملوكى الجائر أمر غير ممكن للبون الشاسع فى موازين القوة بين المصريين والشاميين وبين السلطان المملوكى، ولقد عالج بعض علماء الإسلام تلك الإشكالية أمثال العالم الجوينى «ت ٤٧٨هـ»، والعالم أبو يعلى الفراء «ت ٤٥٨هـ»، حيث ذكرا أنَّ السلطان الجائر الفاسق الذى يُسرف فى ظلم الرعية والتجاهر بالمعاصى يجب عزله من خلال الاستعانة بـ«أهل الشوكة» أى أولئك الذين يملكون مقومات القوة العسكرية فى تلك الدولة حتى يتيسر لهم خلع السلطان دون إراقة الكثير من الدماء[2].

---

(١) العينى «عقد الجمان» ص ٣١٥، ابن الصيرفى «نزهة النفوس» ح ٢ ص ٤١٠.

(٢) الجوينى «أبو عبد الله محمد «ت ٤٧٨هـ»» «غياث الأمم فى التياث الظلم» ص ١١٥، تحقيق د. عبد العظيم الديب، مكتبة إمام الحرمين، ط ٢ (١٤٠١هـ)، أبو يعلى الفراء «محمد بن الحسين «ت ٤٥٨هـ»» «الأحكام السلطانية» ص ٢٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٣م.

ولقد رأى عض علماء القرن التاسع ذلك الرأى ، حيث شهد ذلك القرن محاولة فريدة لخلع السلطان المملوكى بسبب جوره وفسقه ، لعب العلماء فيها دورًا بارزًا ، وأعنى بذلك ما ترويه المصادر التاريخية فى أحداث عام ٨١٥هـ/١٤١٢م ، حيث تزايد ظلم السلطان فرج بن برقوق[١] ـ ذلك السلطان الذى أجمع مؤرخو مصر والشام على أن البلاد خُرِّبت فى عهده ، وأنه عَمِدَ إلى إثارة الحروب والفتن[٢] ـ ، عندئذٍ رأى فريق من علماء مصر والشام ـ على رأسهم شهاب الدين الباعونى[٣] ، وشرف الدين التبانى[٤] ، وشهاب الدين الحسبانى[٥] ـ أنَّ مصلحة البلاد تستوجب عزل هذا السلطان ، فتوجهوا إلى الأمير شيخ[٦] ـ نائب حلب آنذاك ـ وأعلموه بأنهم يرشحونه سلطانًا على مصر والشام ؛ وذلك لِمَا اشتُهِر به من العدالة فضلًا عن اجتماع معظم الأمراء والمماليك حوله[٧] ، ثم تذكر المصادر التاريخية لنا عقب ذلك أن هؤلاء العلماء قاموا بدعوّة المصريين والشاميين إلى مساندة الأمير شيخ فى خلع السلطان فرج ، وعلى الرغم من أنَّ المصادر التاريخية لم تكشف لنا مظاهر وأبعاد هذه الدعوة إلى أنها كشفت آثار هذه الدعوّة فى خلع السلطان فرج ، حيث ذكرت المصادر التاريخية أنَّ دعوة العلماء وتأييدها للأمير شيخ ظهرت ثمارها فى فشل السلطان فرج فى كسب تأييد المصريين والشاميين لمعسكره عندما أراد الاستعانة بهم فى قتال شيخ ، بينما نجح

---

(١) فرج بن برقوق : انظر : ص ١٥.

(٢) ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٢ ص ٣٢٢، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٣ ص ١٠٨، العينى « عقد الجمان » ص ١٥٨، المقريزى « السلوك » ح ٤ ص ٢٢٥، ابن تغرى « المنهل الصافى » ح ٨ ص ٣٧٩، تحقيق د. محمد محمد أمين ، مطبعة دار الكتب المصرية ، ١٩٩٩م .

(٣) شهاب الدين الباعونى : انظر : ص ٤٠.

(٤) شرف الدين التبانى : انظر : ص ٣٨.

(٥) شهاب الدين الحسبانى : أحمد بن إسماعيل ، تفقه على شيوخ عصره ، درس ، وأفتى ، توفى ٨١٥هـ ، انظر : ابن قاضى شهبة «طبقات الشافعية» ح ٢ ص ٢٥٦.

(٦) شيخ : انظر : ص ٣٧.

(٧) العينى « عقد الجمان » ص ١٠٠، ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٢ ص ٤٨٨، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٣ ص ٢٥٦.

الأمير شيخ فى كسب تأييد[١] المصريين والشاميين لمعسكره، كما أنَّ تأييد العلماء ومن ورائهم المصريين والشاميين دفع غالب أمراء السلطان فرج وجنوده إلى التخلى عنه عندما اقتربت لحظة المواجهة العسكرية بين فرج وشيخ، وعندما حانت لحظة المواجهة بأرض اللَّجُّون[٢] بين معسكر فرج ومعسكر شيخ سرعان ما هُزِم فرج بعد معركة قصيرة سهلة، ثم قُتِل فرج فى صفر عام ٨١٥هـ/١٤١٢م[٣].

ب ـ العلماء واعتزال السلطة المملوكية:

إن الواقع السياسى الإسلامى عقب عهد الخلفاء الراشدين اتسم بالانفصال التدريجى بين الدين والدولة، حيث لم تعد غايات الدين ومقاصده هى ذاتها غايات ومقاصد السلطة الحاكمة، وهنا ذهب فريق من العلماء إلى الاتصال بالسلطة الحاكمة فى إطار المناصحة للحاكم والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فضلًا عن تولى الولايات[٤] فى ظل تلك السلطة، بينما رأى الفريق الآخر اعتزال تلك السلطة وعدم تولى الولايات فى ظل تلك السلطة[٥].

---

(١) لم توضح المصادر التاريخية ماهية هذا التأييد، حيث لم تذكر المصادر التاريخية لنا صراحة نزول المصريين أو الشاميين إلى ميدان الصراع العسكرى بجوار شيخ.

(٢) **اللَّجُّون**: مدينة بالأردن بينها وبين طبرية عشرون ميلًا، وإلى الرملة مدينة فلسطين أربعون ميلًا، انظر: ياقوت الحموى «معجم البلدان» ص ١٣، دار صادر، بيروت، ١٩٥٧م.

(٣) ابن حجر «إنباء الغمر» ص ٥٠ ـ ٥٤، العينى «عقد الجمان» ص ١٠٧ ـ ١١١، ابن تغرى «النجوم الزاهرة» ح ١٣ ص ٩٦ ـ ١٠٤، المقريزى «السلوك» ح ٤ ص ٢٠٩ ـ ٢٢٣، ابن الصيرفى «نزهة النفوس» ح ٢ ص ٣٠٥ ـ ٣١٧، صالح بن يحيى «تاريخ بيروت» ص ٢١٧.

(٤) **الولايات**: «جمع ولاية» ـ بفتح الواو وكسرها ـ وهى فى اصطلاح الفقهاء سلطة شرعية بها يتمكن الإنسان من تنفيذ التصرفات على الغير قولًا أو فعلًا، دون توقف على رضاه، ومن أمثال تلك الولايات: القضاء، الحسبة، النظر على الأوقاف، وأموال اليتامى... إلخ، انظر: البلاطنسى «تحرير المقال» ص ٢٦٥، د. سيف الدين عبد الفتاح «التجديد السياسى والخبرة الإسلامية» ص ٥٤٩.

(٥) د. عبد الله جمال الدين «نظام الدولة فى الإسلام» ص ٢٩١، صالح سعيد «التجديد فى الفكر السياسى لابن تيمية» ص ٢٦٧، ماجستير، كلية الاقتصاد والعلوم السياسية، جامعة القاهرة، ١٩٩٧م، =

وهذا ما يصدق على علماء مصر والشام فى القرن التاسع الهجرى، حيث ذهب فريق منهم إلى الاتصال بالسلطة[1]، بينما ذهب فريق آخر إلى اعتزال السلطة المملوكية، وعدم تولى الولايات فى ظلها، ولقد علل أحد أقطاب هذا الفريق مبررات اعتزالهم للسلطة المملوكية وعدم تولى الولايات فى ظلها، وأعنى به العالم جلال الدين السيوطى[2] «ت ٩١١هـ» الذى ذكر أنه يجب اعتزال السلطة الجائرة وعدم الدخول عليها ومناصحتها وذلك تجنبًا للإفتتان بهم فى الدين من ناحية وإعانتهم على ظلمهم من ناحية أخرى، كما أنه لا يجوز[*] تولى الولايات فى ظل تلك السلطة[3].

ولقد رصدت لنا المصادر التاريخية نماذج من علماء مصر والشام ـ خلال القرن التاسع ـ اعتنقوا اتجاه اعتزال السلطة والحياة السياسية ورفض تولى الولايات فى ظل السلطة

= د.على محمد «مشاركة المسلم الأمريكى فى الحياة السياسية الأمريكية «دراسة فقهية مقارنة» ص ٣٦٣، مقال بمجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، السنة السابعة عشرة، العدد الحادى والخمسون، شوال ١٤٢٣هـ/ ديسمبر ٢٠٠٢م، مجلس النشر العلمى، جامعة الكويت.

(١) وهذا ما أوضحه الباحث ـ فى موضع سابق من هذا الفصل ـ تحت عنوان «العلماء والاتصال بالسلطة».

(٢) جلال الدين السيوطى: جلال الدين عبد الرحمن، تفقه على شيوخ عصره، درس وأفتى، وصنف مصنفات عديدة، توفى ٩١١هـ، انظر: الغزى «الكواكب السائرة» ص ٣١٥، السخاوى «الضوء اللامع» ح ٤ ص ٦٥.

(*) يرى كل من العالم العز بن عبد السلام «ت ٦٦٠هـ»، والعالم ابن تيمية «ت ٧٢٨هـ»، والعالم ابن الشحنة «ت ٨٨٢هـ»، والعالم تقى الدين البلاطنسى «ت ٩٣٦هـ» ـ أنه رغم فساد الأداء السياسى ومظالم السلطة المملوكية ـ أن الولاية أمانة يجب أداؤها، وبخاصة لمن يجتمع به صفات الولاية من العلم والأمانة والقوة، فتولية الأبرار خير للأمة من تولية الفجار، انظر: ابن الشحنة «أحمد بن محمد «ت ٨٨٢هـ»» «لسان الحكام فى معرفة الأحكام» ص ٢، مخطوط بجامعة القاهرة برقم (١٩٦٨٥)، ابن تيمية «السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية» ص ١٨٦، تحقيق محمد إبراهيم البنا، محمد أحمد عاشور، مكتبة دار الشعب، القاهرة، ١٩٧٠م، البلاطنسى «تحرير المقال» ص ٢٦٦ ـ ٢٧٧.

(٣) السيوطى «جلال الدين عبد الرحمن «ت ٩١١هـ»» «ما رواه الأساطين فى عدم المجئ إلى السلاطين» ص ٢٣، ٤٦، ٧٥، تحقيق مجدى فتحى، دار الصحابة للتراث، طنطا، ١٩٩١م.

المملوكية ، حيث جاءت عبارة « اعتزل السلطة المملوكية » ، و « رفض تولى الولاية ـ من قضاء أو غير ذلك ـ حينما عرضتها السلطة عليه » فى ثنايا تراجم المؤرخين لهؤلاء العلماء ، والذين منهم ـ على سبيل المثال ـ عبادة بن على[١] « ت ٨٤٦هـ »[٢] ، وعلاء الدين القلقشندى[٣] « ت ٨٥٦هـ »[٤] ، والجلال المحلى[٥] « ت ٨٦٤هـ »[٦] ، وشمس الدين السخاوى[٧] « ت ٩٠٢هـ »[٨] ، وجلال الدين السيوطى[٩] « ت ٩١١هـ »[١٠] . « من علماء مصر » .

وتاج الدين ابن بهادر[١١] « ت ٨٣١هـ »[١٢] ، وتقى الدين أبو بكر[١٣] « ت ٨٥٨هـ »[١٤] ،

---

(١) عباده بن على : تفقه على شيوخ عصره ، درس وأفتى ، ورفض تولى القضاء المالكى بمصر ، توفى ٨٤٦هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ١٦.

(٢) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ١٧، ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٤ ص ٢٦٠.

(٣) علاء الدين القلقشندى : على بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، برع فى الفقه والأصول ، درس وأفتى ، توفى ٨٥٦هـ ، انظر : ابن تغرى بردى « المنهل الصافى » ح ٨ ص ٤٥، مطبعة دار الكتب الوثائق القومية ، القاهرة ، ١٩٩٩م .

(٤) ابن تغرى : « المنهل الصافى » ح ٨ ص ٤٥.

(٥) الجلال المحلى : محمد بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، درس ، وأفتى ، توفى عام ٨٦٤هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٧ ص ٣٩.

(٦) السخاوى : « الضوء اللامع » ح ٧ ص ٣٩.

(٧) شمس الدين السخاوى : محمد بن عبد الرحمن ، تفقه على شيوخ عصره ، برع فى علم الحديث ، درس ، توفى ٩٠٢هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٨ ص ٢.

(٨) العيدروس « النور السافر فى أخبار القرن العاشر » ص ٤٠، تحقيق أحمد حَالَو ، دار صادر ، بيروت ، ط ١ (٢٠٠٣م) .

(٩) السيوطى : انظر : ص ٥٨.

(١٠) الشعرانى : « لواقح الأنوار القدسية فى طبقات العلماء والصوفية » ص ٣٠، تحقيق سعيد هارون ، مكتبة الآداب ، القاهرة ، ٢٠٠٣م .

(١١) تاج الدين ابن بهادر : محمد بن بهادر ، تفقه على شيوخ عصره ، كان بحرًا فى العلوم الشرعية ، توفى ٨٣١هـ ، انظر : البقاعى « عنوان الزمان » ح ٢ ص ٤٦٧.

(١٢) البقاعى « عنوان الزمان » ح ٢ ص ٤٦٧.

(١٣) تقى الدين أبو بكر : تفقه على شيوخ عصره ، برع فى علم الحديث ، توفى ٨٥٨هـ ، انظر : ابن الحمصى « حوادث الزمان » ح ١ ص ١٢٨.

(١٤) السخاوى « الضوء اللامع » ح ١١ ص ٩٩، ابن الحمصى « حوادث الزمان » ح ١ ص ١٢٨.

وابن قندس[١] «ت ٨٦١هـ»[٢]. «من علماء دمشق».

وسبط ابن العجمى[٣] «ت ٨٤١هـ»[٤]، والشهاب المرعشى[٥] «ت ٨٧٢هـ»[٦]. «من علماء حلب».

وهؤلاء العلماء باعتزالهم السلطة المملوكية وإسقاطهم لمبدأ «الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر» إزاء تلك السلطة، ورفضهم تولى الولايات تضاءل دورهم فى المجتمع المصرى والشامىّ إذا ما قورن بأقرانهم من العلماء الذين ساروا فى الاتجاه المضاد[*]، حيث اقتصر دور هؤلاء العلماء المعتزلين للسلطة على التدريس والتأليف العلمى، وإفتاء المصريين والشاميين فى أمور دينهم.

(١) ابن قندس: أبو بكر بن إبراهيم، تفقه على شيوخ عصره، درس وأفتى، كان شيخ الحنابلة بدمشق، توفى ٨٦١هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ١١ ص ١٤.

(٢) السخاوى «الضوء اللامع» ح ١١ ص ١٤، ابن مكى «السحب الوابلة» ح ١ ص ٢٩٧.

(٣) سبط ابن العجمى: إبراهيم بن محمد، تفقه على شيوخ عصره، كان من كبار علماء الحديث بحلب، توفى ٨٤١هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ١٣٨.

(٤) ابن فهد «لحظ الألحاظ» ص ٣١٣، السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ١٣٨.

(٥) الشهاب المرعشى: أحمد بن أبى بكر، تفقه على شيوخ عصره، انتهت إليه رئاسة العلم بحلب، انظر: ابن تغرى «المنهل الصافى» ح١ ص ٢٢٤.

(٦) ابن طولون «الغرف العلية فى تراجم متأخرى الحنفية» ص ٩٠، مخطوطة بدار الكتب المصرية، برقم (١٣٣٢٤)، ابن تغرى «المنهل الصافى» ح ١ ص ٢٢٤.

(*) حيث لم يقتصر دور العلماء الذين اتصلوا بالسلطة المملوكية ـ من خلال الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، وتولى الولايات ـ على الحياة السياسية بمصر والشام ـ كما تبين ـ، بل يمتد إلى سائر نواحى الحياة المصرية والشامية ـ كما سيوضح الباحث فى فصول الدراسة اللاحقة ـ.

obeikandl.com

ثانيًا : العلماء والسياسة الخارجية لمصر والشام

تعرض المجتمع المصرى والشامىّ ـ فى القرن التاسع الهجرى ـ لثلاثة(*) أخطار خارجية رئيسية ـ « المغول ، الصليبيون ، التركمان » ـ هددت أمن المجتمع المصرى والشامىّ واستقراره ، ولقد جاهد وناضل علماء مصر والشام لدفع تلك الأخطار الخارجية حتى يحيا المصريون والشاميون فى أمنٍ وسلام .

وسوف يتم تناول هذا الجهاد والنضال ـ كما صورته المصادر التاريخية ـ من خلال ثلاثة محاور :

١ ـ العلماء والجهاد بالقلم .

٢ ـ العلماء والجهاد بالسيف .

٣ ـ العلماء والسفارات .

(*) لم يمثل العثمانيون خطرًا خارجيًا على مصر والشام ـ فى القرن التاسع الهجرى ـ ، فلقد كانت العلاقات المملوكية العثمانية ودّية ـ بوجه عام ـ ، حيث كانت الدولة العثمانية فى فتوحاتها تتجه شطر الغرب ، حتى عندما تأزمت العلاقات المملوكية العثمانية فى الربع الأخير من القرن التاسع ، فإن مصر والشام ظلت بعيدة عن أى تهديد عسكرى من قبل العثمانيين ، واقتصر التأزم فى العلاقات على الطابع السياسى دون العسكرى ، ولمزيد من الإيضاح انظر : د. أحمد فؤاد متولى « الفتح العثمانى للشام ومصر » ص ٩ ـ ٤٠ ، دار النهضة العربية ، ١٩٧٦م ، د. إبراهيم طرخان « مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة » ص ١٦٢ ـ ١٧٣ ، د. عصام محمد « السلاطين فى المشرق العربى » ص ١١١ ، محمد ماهر « الوثائق السياسية والإدارية للعصر المملوكى » ص ٧٧ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٩٨٠م ، غيثاء أحمد « العلاقات العثمانية المملوكية » ص ٤٤ ، ١٠٢ ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٥م ، إبراهيم حامد « نيابة دمشق فى عصر المماليك » ص ١١٥ ـ ١٢٢ ، ماجستير ، كلية دار العلوم ، جامعة المنيا ، ٢٠٠٠م ، أحمد محمود « موقف بنى حفص من الصراع العثمانى المملوكى » ص ١ ، مقال بدورية Annales Islamologiques ، عدد (XXXV) لعام (2001).

obeikandl.com

١ ـ العلماء والجهاد بالقلم :

صنف علماء القرن التاسع بأقلامهم مؤلفات تبين للمصريين والشاميين فريضة الجهاد فى سبيل الله ومكانتها فى الإسلام فى ضوء مصادره الأصيلة « القرآن ـ السنّة النبوية » ، حيث تذكر المصادر التاريخية أن العالم ابن النحاس المصرى[١] « ت ٨١٤هـ » ، قد صنف كتاب « مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق »[٢] ، وهو مجلد كبير انتفع به الناس وتنافسوا فى تحصيله ـ كما يذكر السخاوى[٣] ـ ، ولقد تناول ابن النحاس فى هذا المصنف فريضة الجهاد فى ضوء كتاب الله وسنّة رسوله ﷺ بكافة جوانبها ، فيتحدث على سبيل المثال عن فضل الرِباط فى سبيل الله وما أعدّه الله ـ عزّ وجلّ ـ للمرابطين فى سبيله ، وذلك بإيراده طائفة من الأحاديث النبوية المتعلقة بهذا الشأن ، والتى منها أن الرسول ﷺ قال : « من مات مُرَابِطًا فى سبيل الله ، أُجْرى عليه أَجْر عَمَلِه الصالح الذى كان يعمل وأُجرى عليه رزقه ، وأَمِن من الفتَّان ، وبعثه الله يوم القيامة آمنا من الفزع[*] »[٤] .

ومن تلك الجوانب ـ أيضًا ـ التى تحدث عنها ابن النحاس فى مُؤلفه ، فضل السبق إلى الجهاد[٥] ، وفضل الغزو فى البحر[٦] ، .....

---

(١) ابن النحاس : أحمد بن إبراهيم ، تفقه على شيوخ عصره ، وكان ملازمًا للجهاد والرباط ، توفى ٨١٤هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٢٠٣.

(٢) لقد تيسر للباحث العثور على هذا الكتاب ، فهو مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٣٠٩٠) تصوف ، أو (١٨٠ تصوف حليم) ، ومكروفيلم برقم (٣٧٢٨٣) .

(٣) السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٢٠٣.

(*) هذا الحديث رواه الحاكم النيسابورى فى مستدركه ، وابن ماجه فى سننه ، انظر : الحاكم النيسابورى « المستدرك على الصحيحين » ح ٢ ص ٩٩، دار الحرمين للطباعة ، القاهرة ، ١٤١٧هـ/١٩٩٧م ، ابن ماجه « سنن ابن ماجه » ح ٢ ص ٤٩٧، تحقيق محمد فؤاد ، دار الحديث ، القاهرة ، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م .

(٤) ابن النحاس « مشارع الأشواق » ص ٢٣٢ - ٢٧٨.

(٥) ابن النحاس « مشارع الأشواق » ص ١١٨ - ١٢٠ .

(٦) ابن النحاس « مشارع الأشواق » ص ١٣٥ - ١٥٥.

وفضل إعانة المجاهدين بالمال والسلاح[1]، موردًا فى ذلك كله الآيات القرآنية والأحاديث النبوية المتعلقة بتلك الجوانب التى تحدث عنها.

وكذلك ألف السيوطى[2] «ت ٩١١هـ» مُصنفًا بعنوان «غرس الأنشاب فى الرمى بالنشاب»[*]، أورد فيه السيوطى طائفة من الأحاديث النبوية التى ترغب فى الرميّ بالنشاب ـ أى السهام ـ وتحث على تعلمه وتعليمه استجابة لأوامر الشارع عزّ وجلّ، فلقد أورد السيوطى قول الله عزّ وجلّ: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾[3]، وفسّر السيوطى المقصود بهذه القوة الرميّ، وذلك لما روى عن عقبة بن عامر الجُهَنيّ، أنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ على المنبر ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾، ألا وإن القوة الرميّ ـ ثلاث مرات[*] ـ»[4].

ولقد قال بذلك كثير من العلماء[*] أمثال .....

---

(١) ابن النحاس «مشارع الأشواق» ص ١٨٤- ٢٠٠.

(٢) السيوطى: انظر: ص ٥٨.

(*) لقد تيسر للباحث العثور على هذا الكتاب، فهو مخطوط بمعهد المخطوطات العربية برقم (٢٩ فنون حربية)، وعدد أوراقه (٥٩ ورقة).

(٣) سورة الأنفال «آية ٦٠».

(*) هذا الحديث رواه الحاكم النيسابورى، وابن ماجه، والبيهقى، انظر: الحاكم النيسابورى «المستدرك على الصحيحين» ح ٢ ص ٣٩٠، ابن ماجه «سنن ابن ماجه» ح ٢ ص ٥١٦، البيهقى «أبو بكر أحمد «ت ٤٥٨»» «الجامع لشعب الإيمان» ح ٨ ص ٢٣٠، الدار السلفية، بومباى، الهند، ط ١ (١٩٨٩م).

(٤) السيوطى «غرس الأنشاب فى الرمى بالنشاب» ص ٣، مخطوطة بمعهد المخطوطات برقم (٢٩ فنون حربية).

(*) بين المفسرون أنّ إعداد القوة فى سورة الأنفال المأمور بها المؤمنين يكون بتهيئة وسائل القوة كالنبل والخيل وتعلم الرمى والفروسية، وهى الوسائل التى كانت موجودة يومئذ، وقال الألوسى فى تفسيره «روح المعانى» فى تفسير القوة بالآية هو كل ما يتقوى به فى الحرب كائنًا ما كان، إلا أنه ﷺ خص الرمى بالذكر، لأنه أقوى ما يتقوى به، فهو من قبيل «الحج عرفة»، وهى إشارة لطيفة إلى أهمية الرمى واثره فى بناء القوة العسكرية، ولا نعتقد أن أمّة فى زمن من الأزمان تستغنى فى معركتها عن الرمى، =

ابن عباس « ت ٦٨هـ »[١] ، والشافعى « ت ٢٠٤هـ » ، والقرطبى « ت ٦٧١هـ »[٢] .

ثم يتحدث السيوطى عن فضل تعلم الرمىّ ، وذلك كما ورد فى السنّة النبوية المطهرة ، فيذكر ـ على سبيل المثال ـ ما روى عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ ، أنه قال : مرّ رسول الله ﷺ بقوم يرمون ، فقال ﷺ : « رميًا بنى إسماعيل ، فإن أباكم كان راميًا[*] »[٣] .

ثم يتحدث السيوطى عن الثواب الجزيل الذى أعدّه الله عزّ وجلّ لمن يرمى فى سبيل الله ، فيذكر ـ على سبيل المثال ـ ما روى عن عقبة بن عامر الجُهَنىِّ ، أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « إن الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة صانعه الذى يحتسب فى صنعته الخير ، والذى يجهز به فى سبيل الله ، والذى يرمى به فى سبيل الله » وقال : « ارموا واركبوا فإن ترموا خير من أن تركبوا » وقال : « كل شىء يلهو به ابن آدم فهو باطل إلا ثلاث رميه عن قوسه ، وتأديبه فرسه ، وملاعبته أهله فإنهن من الحق ، ومن علم الرمى ثم تركه فهى نعمة كفرها[*] »[٤] .

= فالأسلحة التكنولوجية الحديثة تقوم على مبدأ الرمى كالدبابات والطائرات ، انظر : د. أحمد مصطفى « جهاد المرأة فى ضوء أحكام الشريعة الإسلامية » ص ١٨٣، ١٨٤، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية ، جامعة الكويت ، العدد (٦٠) محرم ١٤٢٦هـ/ مارس ٢٠٠٥م .

(١) السيوطى « غرس الأنشاب » ص ٤، السخاوى « القول التام فى الرمى بالسهام » ص ٢٤، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٢ فنون حربية) ، ومكروفيلم برقم (٥٢٢٧٦) .

(٢) السخاوى « القول التام » ص ٢٥.

(*) هذا الحديث رواه الحاكم فى مستدركه ، والبيهقى فى شعبه ، والبخارى عن طريق سلمة بن الأكوع ، انظر : الحاكم النيسابورى « المستدرك على الصحيحين » ح ٢ ص ١١٤، البيهقى « الجامع لشعب الإيمان » ح ٨ ص ٢٣٢، ابن حجر العسقلانى « فتح البارى بشرح صحيح البخارى » ح ١٢ ص ٤٧، مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .

(٣) السيوطى « غرس الأنشاب » ص ٥.

(*) هذا الحديث رواه الحاكم النيسابورى فى مستدركه ، وابن ماجه فى سننه والبيهقى فى شعبه ، انظر : الحاكم النيسابورى « المستدرك » ح ٢ ص ١١٥، ابن ماجه « سنن ابن ماجه » ح ٢ ص ٥١٦، البيهقى « الجامع لشعب الإيمان » ح ٨ ص ٢٢٣.

(٤) السيوطى « غرس الأنشاب » ص ٧.

obeikandl.com

وكذلك ما رواه عمرو بن عبسة ، أنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من رمى العدو بسهم فبلغ سهمه أخطأ أو أصاب فعدل رقبة[*] »[1] .

كما ألف السخاوى[2] « ت ٩٠٢هـ » مُصنفًا بعنوان « القول التام فى الرمىّ بالسهام » أورد فيه طائفة من الأحاديث النبوية التى ترغب فى هذا لأمر ـ أى الرمى بالسهام ـ كما فعل السيوطى فى مصنفه السابق ذكره ، فيتحدث عن فضل تعلم الرمىّ كما ورد فى السنّة النبوية المطهرة[3] ، ثم يتحدث عن الثواب الجزيل الذى أعده الله عزّ وجلّ لمن يقوم بالرمىّ بالسهام فى سبيل الله كما ورد فى السنة النبوية المطهرة[4] .

ب ـ العلماء والجهاد بالسيف :

إن الجهاد بمعناه الخاص[5] هو التضحية بالنفس فى سبيل الله بمعنى مقاتلة أعداء الإسلام ، والاشتراك الفعلى فى قتالهم ، ويدخل فى معناه ـ أيضًا ـ كل جهد مباشر يبذل من أجل هذا القتال ، كتعبئة الدولة الإسلامية لرعاياها للإنضمام إلى صفوف القتال ، والرِباط[6] بحدود

(*) هذا الحديث رواه الحاكم فى مستدركه ، وابن ماجه فى سننه ، انظر : الحاكم النيسابورى « المستدرك » ح ٢ ص ١١٦، ابن ماجه « سنن ابن ماجه » ح ٢ ص ٥١٦.

(١) السيوطى « غرس الأنشاب » ص ١٣.

(٢) شمس الدين السخاوى : محمد بن عبد الرحمن ، تفقه على شيوخ عصره ، درس وأفتى ، وبرع فى علم الحديث ، له مصنفات عدة ، توفى ٩٠٢هـ ، انظر : العيدروس « النور السافر » ص ١٥٠.

(٣) السخاوى « القول التام فى الرمى بالسهام » ص ٢١، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (٢ فنون حربية) ومكروفيلم برقم (٥٢٢٧٦) .

(٤) السخاوى « القول التام » ص ٣٠، ٤٨، ٩٩.

(٥) حيث أن الجهاد بمعناه العام يعنى الاجتهاد فى حصول ما يحب الله من الإيمان والعمل الصالح ، ومن دفع ما يبغض الله من الكفر والفسوق والعصيان ، انظر : السيوطى « أربعون حديثًا فى فضل الجهاد » ص ١٩، تحقيق مرزوق على ، دار الاعتصام ، القاهرة ، ١٩٨٨م ، عبد العزيز عبد الغنى « نظرية الجهاد فى الإسلام » ص ١١٧، ماجستير ، كلية الاقتصاد والعلوم السياسة ، جامعة القاهرة ، ١٩٨٣م .

(٦) جرت العادة عقب الفتوحات الإسلامية الأولى بتشييد نوع من المبانى العسكرية بالثغور ـ التى هى موضع المخافة من العدو ـ ، وعرفت تلك المبانى العسكرية بالربط ، وكانت تلك الربط أشبه بالقلاع =

الدولة وثغورها[1] .

ولقد شارك علماء مصر والشام فى هذا الجهاد بمعناه ـ السابق ذكره ـ ضد المغول ، والصليبيين ، والتركمان ، وذلك ما ستوضحه السطور التالية .

* العلماء والمغول[*] :

عاد خطر المغول يهدد مصر والشام مع مطلع القرن التاسع الهجرى ، وذلك بظهور تيمورلنك[2] ، الذى انتهز صراع أمراء الدولة المملوكية بعد وفاة السلطان برقوق[3] ، فحشد

= الحصينة ، يرابط فيها حامية لدفع عادية الأعداء ، وكان التصميم المعمارى لهذه الربط عبارة عن مبانى ذات تخطيط مستطيل يتألف من صحن أوسط تحيط به أبراج فى الأركان ، وبالجانب القبلى للصحن مُصلى ، وبالجوانب الأخرى حجرات صغيرة بغير نوافذ للمرابطين ، ولا يؤدى إلى الرباط إلا مدخل واحد ، انظر : عميد أ.ح محمود نديم « الفن الحربى للجيش المصرى فى العصر المملوكى » ص ٣٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٣، د. عاصم محمد « خانقاوات الصوفية فى مصر فى العصر الأيوبى والمملوكى » ص ٩٨، د. عفيف البهنسى « الفن الإسلامى » ص ٢٧٣، دار طلاس للنشر ، ١٩٨٦، دولت عبد الكريم « الخوانق فى مصر فى العصر الأيوبى والمملوكى » ص ٢٠، دكتوراة ، آداب القاهرة ، ١٩٧٣م .

(١) السيوطى « أربعون حديثًا فى فضل الجهاد » ص ٢٢، عبد العزيز عبد الغنى « نظرية الجهاد فى الإسلام » ص ١١٨، د. محمد إبراهيم « علاقات المسلمين بغيرهم فى هدى القرآن » ص ٢٩٩، مجلة كلية دار العلوم ، عدد (٢٩) لعام ١٩٩٩م .

(*) **المغول** : قبائل طورانية جاءت من أقصى الشرق حيث منغوليا ، ولقد استطاع جنكيز خان « ٥٥٠ ـ ٦٢٤هـ » أن يؤسس لهم إمبراطورية شاسعة عام ٦٠٣هـ/١٢٠٦م ، انظر : د. فايد حماد « العلاقات السياسية بين المماليك والمغول » ص ٢٧.

(٢) تيمورلنك : تيمور : تعنى الحديد ، اللنك : الأعرج ، ولد فى قرية من أعمال كش من مدن بلاد ما وراء النهر ٧٣٧هـ/١٣٣٦م ، استولى فى سرعة مدهشة على بلاد ما وراء النهر ، ثم اتجه بعد ذلك إلى بلاد المشرق ، وخرب بها مدن عامرة ، توفى بسمرقند عام ٨٠٧هـ ، انظر : محمد كرد « خطط الشام » ح ٢ ص ١٦١.

(٣) محمد أحمد « علاقة الدولة التيمورية بسلطنة المماليك » ص ٦٧، ماجستير ، آداب القاهرة ، ١٩٨٦م ، وفاء محمد « ساحل الشام فى العصر المملوكى » ص ١٣٤، حكيم أمين «قيام دولة المماليك الثانية» ص ١٧٧، دكتوراة ، آداب القاهرة ، ١٩٦٠م .

جيوشه عام ٨٠٣هـ/١٤٠٠م لمهاجمة مصر والشام، وهنا لجأت السلطة المملوكية إلى العلماء ليقوموا بتعبئة المصريين والشاميين للإنضمام إلى صفوف الجيش[١] للجهاد ذد تيمور، ففى ربيع الأول من عام ٨٠٣هـ/١٤٠٠م جاب علماء مصر أمثال ـ سراج الدين البلقينى[٢]، وموفق الدين العسقلانى[٣] ـ نواحى البلاد يدعون المصريين للجهاد ضد تيمور، مستعينين على ذلك بحشد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تحبب فى الجهاد وتدعوا إليه، وتبين مكانة المجاهدين عند الله، محذرين من التقاعس عن قتال العدو، لما فيه من ذلٍ للأمّة، ومعصيةٍ لله[٤].

ولقد تكرر المشهد السابق بدمشق فى صفر ٨٠٣هـ/١٤٠٠م، حيث جاب علماء دمشق أمثال ـ شمس الدين الشهابى[٥]، وشرف الدين الحسبانى[٦] ـ نواحى البلاد يدعون

---

(١) من المعروف أن الجيوش الإسلامية، عرفت طائفة الجند المتطوعة طوال عصورها التاريخية، وكان ذلك دون إكراه منذ عهد الرسول ﷺ والخلفاء الراشدين، وكان هؤلاء المتطوعة يشتركون فى الجيش وقت الحرب فقط ويسرحون فى السلم، وكان هؤلاء المتطوعون لا يكلفون بيت المال شيئًا ويقنعون بما يصيبون من الغنائم، ولقد كان الجيش المملوكى يعتمد على هؤلاء المتطوعة عندما يلم بالدولة خطر خارجى كالمغول والصليبيين، انظر: جورج كاستلان «تاريخ الجيوش» ص ٦٤، ترجمة كمال دسوقى، مكتبة النهضة المصرية، ١٩٥٦م، إبراهيم حسن «الجيش فى عصر سلاطين المماليك» ص ١٦٥، ماجستير، آداب القاهرة، ١٩٧٣م، د. عبد المنعم ماجد «نظم دولة المماليك» ص ١٥١.

(٢) سراج الدين البلقينى: عمر بن رسلان، تفقه على شيوخ عصره، درس وأفتى، كان من كبار علماء الشافعية بمصر، توفى ٨٠٥هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٦ ص ٨٥.

(٣) موفق الدين العسقلانى: أحمد بن نصر الله، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء مصر على المذهب الحنبلى، توفى ١١ رمضان ٨٠٣هـ، انظر: ابن حجر «رفع الأصر» ص ١٠٩.

(٤) المقريزى «السلوك» ح ٦ ص ٤٠، تحقيق محمد عبد القادر، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٧م، ابن تغرى «النجوم الزاهرة» ح ١٢ ص ١٨٣، ابن شهبة «تاريخ ابن شهبة» ص ٢١٣، ابن شاهين «نيل الأمل» ح ٣ ص ٤٩.

(٥) شمس الدين الشهابى: محمود بن أحمد، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء الشافعية بدمشق، توفى ٨٠٦هـ، انظر: ابن المبرد «متعة الأذهان» ح ١ ص ٩٧.

(٦) شرف الدين الحسبانى: محمد بن موسى، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء الحنفية بدمشق، توفى ٨١٥هـ، انظر: السخاوى «الذيل التام» ص ٩٣.

أهالى دمشق للجهاد ضد تيمور[1] ، وكذلك كان الأمر بحلب[*][10] .

أمّا دور العلماء فى المعارك العسكرية التى نشبت بين تيمورلنك والمماليك عندما بدأ الهجوم المغولى على بلاد الشام ، فتذكر المصادر التاريخية أنه فى ١١ ربيع الأول ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م هاجم المغول حلب فتصدى لهم الجيس المملوكى وعامة أهل حلب وعلماءها[*] أمثال ابن الركن الحلبى[2] « ت ٨٠٣هـ » ، وأبلوا بلاءًا حسنًا فى القتال ، وكبدوا المغول خسائر كبيرة ، ولكن الجيش المغولى استطاع فى نهاية الأمر أن يحسم[*] المعركة لصالحه ، وتم غزو حلب من قبل المغول الذين قاموا بمذابح مروّعة ضد الأهالى منذ دخولهم المدينة فى الحادى عشر من ربيع الأول ولمدة شهر ، ذاق خلالها أهالى حلب وعلماءها شتى ألوان

---

(١) ابن شهبة « تاريخ ابن شهبة » ص ٢٠٤.

(*) لم تذكر المصادر التاريخية أسماء علماء حلب الذين قاموا بتعبئة الأهالى ضد تيمور ، كما لم تذكر وتصرح بدور لباقى علماء مدن الشام فى ذلك الأمر ، غير أنه يمكن اعتقاد قيامهم بتلك التعبئة كأقرانهم بدمشق ، وحلب ، فالخطر مشترك على سائر مدن الشام وليس دمشق وحلب فقط .

(١٠) ابن شهبة « تاريخ ابن شهبة » ص ٢٠٤.

(*) أوردت المصادر التاريخية اشتراك علماء حلب فى المقاومة العسكرية ضد الغزو المغولى ، ولكنها لم تذكر لنا نماذج من أبرز العلماء الذين قادوا تلك المقاومة ـ باستثناء ابن الركن الحلبى ـ .

(٢) ابن الركن الحلبى : محمد بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، خطب بجامع حلب ، توفى ٨٠٣هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٧ ص ١٢.

(*) تعزو المصادر التاريخية أسباب سقوط مدينة حلب بهذا الشكل السريع إلى السياسة الخرقاء للدولة المملوكية إزاء الخطر المغولى ، والذى تمثل فى رفض المماليك التحالف مع العثمانيين الذين سعوا لعقد تحالف عسكرى لصد خطر المغول ، مع انشغال أمراء المماليك على الصراع على كرسى الحكم بعد وفاة السلطان برقوق « ت ٨٠١هـ » ، حيث كان يجلس على كرسى السلطنة طفل فى العاشرة من عمره وهو السلطان فرج بن برقوق « ت ٨١٥هـ » ، ومن الأسباب الرئيسية ـ أيضًا ـ التى ذكرتها المصادر لهذه الهزيمة السريعة ضخامة الجيش المغولى الذى وصفه المؤرخون بأنه كأمواج البحر ، وأنه من كثافته كأنه سد الفضاء ، انظر : ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٢ ص ١٧٤، ابن عربشاة « عجائب المقدور فى نوائب تيمور » ص ٨، ١٩٩، ابن شهبة « تاريخ ابن شهبة » ص ٢١٠، المقريزى « السلوك » ح ٦ ص ٤٠، ابن دقماق « النفحة المسكية » ص ٣١٦.

العذاب من سفك دماء وهتك أعراض ونهب أموال[١] ، ولقد كان العالم ابن الركن الحلبى ـ السابق ذكره ـ من أبرز علماء حلب الذين قتلوا على أيدى المغول أثناء عمليات المقاومة للغزو المغولى .

وعندما علم السلطان فرج بن برقوق[٢] بسقوط حلب والزحف المغولى نحو دمشق خرج يوم الأحد ١٣ ربيع الآخر ٨٠٣هـ/١٤٠٠م على رأس الجيش المملوكى للدفاع عن دمشق ، ولقد رافق الجيش المملوكى المصريين والعلماء أمثال صدر الدين المناوى[٣] ، وموفق الدين[٤] العسقلانى[٥] .

أمّا علماء دمشق فى ذلك الوقت فكانوا يحثون الأهالى على الجهاد وعدم الفرار من المدينة ، ويشرفون بأنفسهم على الإجراءات الدفاعية للمدينة ككشف أسوار المدينة والتأكد من حصانتها ، وتزويد قلعة دمشق بالأسلحة والمعدات العسكرية ، وكان من أبرز علماء دمشق الذين قاموا بذلك برهان الدين التادلى[٦] ، وشرف الدين[٧] عيسى[٨] .

---

(١) ابن عربشاة « عجائب المقدور » ص ١٩٩، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٢ ص ١٧٨، المقريزى « السلوك » ح ٦ ص ٤١، ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٢ ص ٧٥، ابن إياس « بدائع الزهور » ح ١ ص ٣٢٦.

(٢) فرج بن برقوق : انظر : ص ١٤.

(٣) صدر الدين المناوى : محمد بن إبراهيم ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الشافعية بمصر ، توفى عام ٨٠٣هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٦ ص ٢٤٩.

(٤) موفق الدين العسقلانى : أحمد بن نصر الله ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الحنابلة بمصر ، توفى عام ٨٠٣هـ ، انظر : المقريزى « العقود الفريدة » ح ٢ ص ١٨٢.

(٥) ابن شهبة « تاريخ ابن شهبة » ص ٢١٣، المقريزى « المقفى » ح ٥ ص ٧٩، ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٢ ص ٧٩، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٦ ص ٢٤٩، ابن دقماق « النفحة المسكية » ص ٣١٨، ابن حجر « رفع الأصر » ص ١٠٩، المقريزى « درر العقود » ح ٢ ص ١٨٢.

(٦) برهان الدين التادلى : إبراهيم بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء المالكية بحلب ودمشق ، توفى ٨٠٣هـ ، انظر : ابن العماد « شذرات الذهب » ح ٧ ص ٢٢.

(٧) شرف الدين عيسى : عيسى بن عثمان ، تفقه على شيوخ عصره ، ناب فى قضاء الشافعية بدمشق ، درس وأفتى بدمشق ، توفى ٨٠٩هـ ، انظر : ابن شهبة « طبقات الشافعية » ح ٢ ص ٢٢٨.

(٨) ابن شهبة « تاريخ ابن شهبة » ص ٢١٠، ابن سباط « تاريخ ابن سباط » ح ٢ ص ٧٦٣، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٢ ص ١٨٢، المقريزى « السلوك » ح ٦ ص ٤٢.

وتذكر المصادر التاريخية أول اشتباك عسكرى بدمشق بين الجيش المملوكى والقوات المغولية يوم الثلاثاء ١٨ جمادى الآخر ٨٠٣هـ/١٤٠٠م، ولقد استطاع المماليك فى هذا الاشتباك تكبيد المغول الكثير من الخسائر البشرية، ولقد شارك علماء دمشق(*) فى تلك المعركة، وضربوا خلالها أروع الأمثلة فى البطولة والفداء، كبرهان الدين التادلى(١) الذى استشهد فى تلك المعركة، وشرف الدين عيسى(٢) الذى شلَّت يده بضربة سيف فى تلك المعركة(٣).

ولكن فى يوم الأربعاء ١٩ جمادى الآخر ٨٠٣هـ/١٤٠٠م فرّ بعض الأمراء إلى مصر، وأشيع أنهم أرادوا كرسى الحكم، فقرر السلطان فرج(٤) الرجوع إلى مصر، فأصبح الدمشقيون نهار الخميس ٢٠ جمادى الآخر ليجدوا السلطان قد غادر دمشق(٥).

وهنا انقسمت دمشق بين تيارين، تيار يرى الاستسلام وطلب الصلح والأمان من تيمور، ومثّل هذا الرأى غالب المجتمع الدمشقى من أعيان وعلماء وعامة، ولقد قاد هذا التيار من العلماء(*) برهان الدين ابن مفلح(٦)، حيث خرج ابن مفلح ـ مُتدليًا من سور المدينة

(*) لم تذكر المصادر التاريخية أسماء علماء دمشق ـ باستثناء برهان الدين التادلى، وشرف الدين عيسى ـ الذين شاركوا فى ذلك الاشتباك العسكرى.

(١) برهان الدين التادلى: انظر: ص ٦٩.

(٢) شرف الدين عيسى: انظر: ص ٦٩.

(٣) ابن عربشاه «عجائب المقدور» ص ٢٣٧، ابن شهبة «تاريخ ابن شهبة» ص ٢١٩، السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ١٥٥.

(٤) فرج بن برقوق: انظر: ص ١٥.

(٥) ابن شهبة «تاريخ ابن شهبة» ص ٢١٩، ابن دقماق «النفحة المسكية» ص ٣١٩، ابن الصيرفى «نزهة النفوس» ح ٢ ص ٨٤، ابن تغرى «النجوم الزاهرة» ح ١٢ ص ١٨٨، المقريزى «السلوك» ح ٦ ص ٤٩.

(*) لم تذكر المصادر التاريخية أسماء العلماء الذين قادوا هذا التيار، حيث اكتفت ـ فقط ـ بذكر قائد هذا التيار من العلماء وهو ابن مفلح.

(٦) برهان الدين بن مفلح: إبراهيم بن محمد، تفقه على شيوخ عصره، درس وأفتى، وليّ قضاء الحنابلة بدمشق ٨٠١هـ، انتهت إليه رئاسة الحنابلة بدمشق، وكان ذا دين وصلاح، انظر: ابن مفلح =

ـ لمقابلة تيمور ، حيث تم الاتفاق على أن يقوم أهالى دمشق بدفع مبلغ من المال « ألف ألف دينار » ، وأن يتم فتح أبواب المدينة أمام القوات المغولية ، وذلك مقابل وعد بالأمان لأهالى دمشق على أنفسهم وأموالهم ، وفى صباح السبت ٢٢ جمادى الآخر ٨٠٣هـ/١٤٠٠م ـ أى بعد يومين من انسحاب فرج بن برقوق ـ تم الإعلان عن بنود الاتفاق الذى توصل إليه أعيان وعلماء دمشق مع تيمور ـ السابق ذكره ـ ، ونودى أنه من خالف ذلك قُتِل ، فكف الأهالى عن القتال[١] .

أمّا التيار الثانى فكان تيار المقاومة ، الذى لم يفت فى عضده فرار السلطان فرج إلى مصر ، فلقد كان يرى أن خسائر الاستسلام أكثر من خطر المقاومة ، حيث تذكر المصادر التاريخية عن هذا التيار المقاوم أنهم لما أصبحوا يوم الخميس ٢٠ جمادى الآخر ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م وعلموا بفرار السلطان فرج أجمعوا على محاربة تيمور ومن معه « فركبوا الأسوار ـ أى أسوار مدينة دمشق ـ ، وأعلنوا بالنداء فى البلد يستحثون بعضهم بعضًا على الجهاد ، وكان بينهم وبين المغول قتالًا عظيمًا من أعلى الأسوار ، وأعلى القلعة ـ أى قلعة دمشق[٢] ـ

= « المقصد الأرشد » ح ١ ص ٢٣٦، ابن مكى « السحب الوابلة » ح ١ ص ٦٧، ابن شهبة « تاريخ ابن شهبة » ص ٢٤٠، ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٤ ص ٢٤٧.

(١) ابن دقماق «الجوهر الثمين فى سير الملوك والسلاطين» ص ٩٧، مخطوط معهد المخطوطات برقم (٦٤٣ تاريخ) ، ابن دقماق « النفحة المسكية » ص ٣٢٠، ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٤ ص ٢٠٧، ابن عربشاة « عجائب المقدور » ص ٢٤٩، ابن شهبة « تاريخ ابن شهبة » ص ٢٢٢، ٢٤٠، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٢ ص ١٩٠، المقريزى « السلوك » ح ٦ ص ٥٠، المقريزى « درر العقود الفريدة » ح ١ ص ١٥٨، والترج فيشل « لقاء ابن خلدون لتيمورلنك » ص ٧، ترجمة محمد توفيق ، تقديم وتعليق د. مصطفى جواد ، منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، « د. ت » .

(٢) **قلعة دمشق** : تقع قلعة دمشق فى الجهة الشمالية الغربية من سور المدينة ، شُيدت فى العهد السلجوقى ، ثم أعيد بناءها فى عهد الأيوبيين بين سنتى (٦٠٣ ـ ٦١٣هـ) ، أصبحت بعدها مدينة ملكية وعسكرية ، وكان بها مكاتب الإدارة ، وخزائن السلاح وبيت المال ، وبها أسواق وحمامات ، فهى مدينة تستطيع أن تكفى نفسها ، ونظرًا لأهميتها فقد جعل المماليك لها حاكمًا خاصًا بها يرتبط مباشرة بالسلطان ، انظر : ابن عربشاة « عجائب المقدور » ص ٢٥٩، البدرى « أبى البقاء عبد الله « ولد ٨٤٧هـ » » « نزهة الأنام فى محاسن الشام » ص ٣٥، دار الرائد العربى ، بيروت ، ١٩٨٠م .

كبدوا فيه المغول خسائر كبيرة »، ولقد قاد هذا التيار نائب قلعة دمشق أذدار[١] ومعه عدد من العلماء ـ لم تصرح المصادر التاريخية بأسمائهم، واستمرت تلك المقاومة الباسلة لمدة يومين، ثم انهارت بعد إعلان أعيان دمشق وعلماءها تسليم مفاتيح المدينة إلى تيمور مقابل الأمان ـ كما سبق القول ـ، ولكن نائب القلعة ومعه نفر قليل من العلماء والأهالى تحصنوا بالقلعة ورفضوا تسليمها لتيمور، وظلوا يقاتلون المغول من فوق أسوارها لمدة ٢٩ يومًا مكبدين خلالها المغول خسائر فادحة، اضطر بعدها نائب القلعة لتسليمها لتيمور بالأمان[٢].

وتذكر لنا المصادر التاريخية أن تيمورلنك أقام بدمشق ٨٠ يومًا ارتكب خلالها مذابح مروّعه ضد الأهالى[*] من سفك دماء وهتك أعراض ونهب أموال، وقبل أن يغادرها أمر بإشعال النيران بها، واستمرت تلك النيران تلتهم المدينة لمدة ثلاثة أيام حتى تمكن الأهالى من إطفائها[٣]، ولقد علل تيمورلنك قيامه بتلك المذابح ضد أهالى دمشق، بأن أجداد سكان هذه البلاد قد ساندوا معاوية بن أبى سفيان فى صراعه مع علىّ بن أبى طالب[*] ـ

---

(١) لم يعثر الباحث على ترجمته فى المصادر التاريخية ـ أمثال ـ « وجيز الكلام » للسخاوى، و « طبقات الشافعية » لابن شهبة، و «الضوء اللامع» للسخاوى، و «المنهل الصافى» لابن تغرى، و «المقفى» للمقريزى.

(٢) ابن عربشاة « عجائب المقدور » ص ٢٦٦، ابن دقماق « النفحة المسكية » ص ٣١٩، ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٢ ص ٨٨، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٢ ص ١٩٠، المقريزى « السلوك » ح ٦ ص ٥٠، والترج فيشل « لقاء ابن خلدون لتيمور » ص ٧٠، ايرالابدوس « مدن الشام فى العصر المملوكى » ص ٢٠٧.

(*) لاشك أن علماء دمشق تعرضوا لتلك المذابح المروّعة على أيدى المغول ـ وإن لم تصرح المصادر التاريخية بذلك ـ حيث أن المصادر التاريخية ذكرت أن عامة سكان دمشق بكل فئاته تعرضوا لتلك المذابح الوحشية دون استثناء.

(٣) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٤ ص ٢٠٧، ابن عربشاة « عجائب المقدور » ص ٢٦٥، ٢٨٥، ابن شهبة « تاريخ ابن شهبة » ص ٢٢٢، ٢٢٥، ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٢ ص ٩٠، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٢ ص ١٩٤، المقريزى « السلوك » ح ٦ ص ٥٤، Nicola A. Ziadeh "Damascus under the Mamluks" p. 10, university of Oklahoma press, 1964.

(*) هناك نوع من الاتصال بين المغول والشيعة منذ بداية الغزو المغولى للعالم الإسلامى ـ منتصف القرن السابع الهجرى ـ، وظلت تلك العلاقة فى القرن التاسع متمثلة فى علاقة تيمورلنك بالطائفة النصيرية ـ =

رضى الله عنه ـ ، وأن ذلك ظلم وفسق وكفر ، وأن الأحفاد على مذهب الأجداد ، وأنه يجب معاقبتهم[١] .

ويعتقد الباحث أن خيار علماء دمشق الاستسلام وعقد الصلح مع تيمور كان خيارًا خاطئًا ، حيث كان علماء دمشق يجب عليهم معارضة أمراء المماليك الذين يريدون الاستسلام وعقد الصلح مع تيمور ، والوقوف بجانب نائب القلعة الذى كان يرى خيار المقاومة ، مع حث أهالى دمشق على جهاد[*] المغول والصبر على قتالهم ، والإشراف على عمليات تحصين المدينة ، ثم يقوم فريق من العلماء باللحاق بالسلطان فرج وإرغامه على العودة للدفاع عن المدينة ، وهذا ما فعله ابن تيمية[٢] « ت ٧٢٨هـ » من قبل عندما هاجم المغول بقيادة غازان[٣] مدينة دمشق وحاصروها عام ٧٠٢هـ/١٢٩٨م حيث تذكر المصادر

= إحدى فرق الشيعة المتطرفة ـ ، انظر لمزيد من الإيضاح ، ابن عربشاة « عجائب المقدور » ص ١٩٤ ـ ٢٢٢، ٢٨٦، محمد كرد « خطط الشام » ح ٢ ص ١٧٢، محمد أمين « تاريخ العلويين » ص ٣٢٨، دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٦٦م ، تقى شرف الدين « النصيرية » ص ١١٣، منشورات لبنان ، ١٩٨٣م ، فؤاد إبراهيم « الفقيه والدولة فى الفكر السياسى الشيعى » ص ١٠٣، دار الكنوز الأدبية ، بيروت ، ١٩٩٨م ، د. صبرى سليم « الصراع السياسى والمذهبى بين الشيعة والسنة فى عصر سيطرة إيلخانات المغول » ص ١٩٣، ٢٠٨، ٢١١، دكتوراة ، دار العلوم ، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م .

(١) ابن عربشاة « عجائب المقدور » ص ٢٨٦، ابن الشحنة « محب الدين محمد « ت ٨١٥هـ » » « روض المناظر فى علم الأوائل والأواخر » ص ١٢، تحقيق سيد محمد ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٧م .

(*) حيث تذكر المصادر التاريخية أن السلطان فرج والأمراء لمّا فرّوا من دمشق خلفوا وراءهم كمية ضخمة من أسلحتهم وعتادهم العسكرى ، وأعدادًا ضخمة من الخيول والدواب ، وبذلك كان من الممكن استخدام الأهالى تلك الأسلحة والخيول فى جهادهم ضد تيمور ، وكذلك فإن نائب قلعة دمشق أعلن فى الأهالى أنه من كان يريد سلاحًا فليحضر إلى القلعة التى كانت مشحونة بالأسلحة ، انظر : ابن قاضى شهبة « تاريخ ابن شهبة » ح ٤ ص ١٥٧، ابن الصيرفى « نزهة النفوس » ح ٢ ص ٨٥، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٢ ص ١٨٩.

(٢) ابن تيمية : انظر : ص ٢٠.

(٣) غازان : هو غازان بن أرغون بن أبغا بن هولاكو ، هو من أقوى سلاطين دولة المغول ، انتهج سياسة عدائية تجاه دولة المماليك ، هاجم دمشق عام ٦٩٩هـ ، وارتكب بها أعمال وحشية ثم غادرها إلى بلاده ، توفى بقرب همذان عام ٧٠٣هـ ، انظر : العمرى « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » ح ٢٧ ص ٤٩٦،=

التاريخية أن ابن تيمية كان يدور كل ليلة على الأسوار ـ أى أسوار دمشق ـ يحرض المماليك والأهالى على الصبر والقتال ويتلوا عليهم آيات الجهاد والرباط ، ويتعاون مع نائب قلعة دمشق فى عمليات تحصين القلعة بالأسلحة والمؤن ، ولمّا تأخر السلطان الناصر محمد بن قلاوون[١] فى الذهاب إلى دمشق لنجدتها سافر إليه ، وخاطبه بحدة لتأخره لنجدة دمشق ، وهدده بأنه إذا لم يخرج لقتال المغول فإنهم سيقيمون لهم سلطانًا يحميهم من المغول ، فاستجاب الناصر وخرج مع ابن تيمية على رأس الجيش المملوكى ، وتمت هزيمة المغول بموقعة مرج الصفر ٧٠٢هـ/١٢٩٨م[٢] .

ولقد عقدت دولة المماليك مع تيمورلنك صلحًا[*] عام ٨٠٥هـ/١٤٠٢م[٣] ، ثم زال الخطر المغولى ـ بشكل عام ـ بعد وفاة تيمور عام ٨٠٧هـ/١٤٠٥م[٤] ، ولكنه ما لبث أن تجدد الخطر المغولى من خلال شاه رخ بن تيمور[٥] خلال عهد السلطان

= تحقيق د. حمزة أحمد ، المجمع الثقافى ، أبو ظبى ، الإمارات ، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م ، ابن حجر « الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » ح ٣ ص ٢٩٢ ، تحقيق محمد سيد ، دار الكتب الحديثة ، القاهرة .

(١) الناصر محمد بن قلاوون : هو من أقوى سلاطين دولة المماليك البحرية ، تولى الحكم ثلاث مرات الأولى فى عام ٦٩٣هـ ، واستمر سنة واحدة ثم عزل ، ثم تولى ٦٩٨هـ حتى عام ٧٠٨هـ ، ثم أعيد للحكم عام ٧٠٩هـ ، واستمر على كرسى السلطنة حتى وفاته عام ٧٤١هـ ، وكانت هذه الولاية الثالثة أعظم تلك الولايات ، وازدهرت خلالها أحوال مصر والشام ، انظر : المقريزى « السلوك » ح ٢ ص ٥٢٩.

(٢) ابن كثير « البداية والنهاية » ح ١٤ ص ٢٦ ـ ٣٠ ، دوروتيا كرافولسكى « العرب وإيران : دراسات فى التاريخ والأدب من المنظور الأيديولوجى » ص ١٩٩ ، دار المنتخب العربى ، بيروت ، ط ١ (١٤١٣هـ/١٩٩٣م) .

(*) لم تذكر المصادر التاريخية دورًا للعلماء فى عقد ذلك الصلح بين دولة المماليك وتيمورلنك عام ٨٠٥هـ .

(٣) السلامى « شهاب الدين أحمد » « مختصر التواريخ » ص ٩١ ، مخطوطة بدار الكتب المصرية برقم (١٤٣٥ تاريخ) ، ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٥ ص ٦٢ ، محب الدين ابن الشحنة « ت ٨١٥هـ » « روض الناظر فى علم الأوائل والأواخر » ص ٣٠٤.

(٤) د. إبراهيم طرخان : « مصر فى عصر دولة المماليك » ص ٩٠ ـ ٩٤ ، محمد أحمد « علاقة الدولة التيمورية بسلطنة المماليك » ص ١٠٧.

(٥) شاه رخ : تولى حكم المغول عقب وفاة أبيه تيمورلنك « ت ٨٠٧هـ » ، وازدهرت دولة المغول فى عهده سياسيًا وحضاريًا ، انتهج سياسة عدائية تجاه المماليك ، توفى ٨٥٧هـ ، انظر : ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٢ ص ٧٠.

برسباى[1] وجقمق[2]، ولكنه انحصر فى شكل تهديد قولى بسبب قوة سلطنة المماليك آنذاك[3].

* **العلماء والصليبيون :**

تُحدد الفترة الزمنية لعصر الحروب الصليبية من عام ٤٨٩هـ/١٠٩٥م وتنتهى عام ٦٩١هـ/١٢٩١م عندما حرر المسلمون مدينة عكا[4] من أيدى الصليبيين، ولكن ذلك لا يعنى انتهاء الحركة الصليبية، حيث قام الصليبيون خلال القرن الثامن بتغيير استراتيجيتهم العسكرية واستخدام سلاح الحصار الاقتصادى على دولة المماليك، فلقد قامت البابويه بالدعوة لتحريم التجارة مع الدولة المملوكية، ولكن هذه الدعوة لم يُقدر لها النجاح لأن مصالح الدول الأوروبية ـ كالجمهوريات الإيطالية « جنوة، البندقية، بيزة » ـ قد تعارضت مع هذه الروح الصليبية، حيث طغى حب الكسب على الوازع الدينى، عندئذٍ لجأ الصليبيون إلى القيام بعمليات تخريب واسعة للموانئ المصرية والشامية ـ لشل الحركة التجارية ـ رافقها عمليات سلب ونهب وأسر طوال القرن التاسع الهجرى ـ ولقد كانت جزيرتى قبرص[5]

---

(١) برسباى : انظر : ص ١٠.

(٢) جقمق : انظر : ص ١١.

(٣) محمد أحمد « علاقة الدولة التيمورية بسلطنة المماليك » ص ١٣٧، ١٤٦.

(٤) **عكا** : مدينة من أعمال نيابة صفد فى العصر المملوكى، بينها وبين مدينة صور ١٢ ميلًا، وهى مدينة حصينة تقع على ساحل البحر الأبيض المتوسط، انظر : أبى الفداء « عماد الدين إسماعيل « ت ٧٣٢هـ » » « تقويم البلدان » ص ٢٤٣، دار صادر، بيروت، « د. ت »، ياقوت الحموى « معجم البلدان » ح ٤ ص ١٤٣، العمرى « مسالك الأبصار » ص ١٣٥.

(٥) **قبرص** : جزيرة تقع فى شمال شرق حوض البحر المتوسط إلى الجنوب من آسيا الصغرى وإلى الغرب من بلاد الشام، وهى بذلك تقع بين خطى عرض ٣٤، ٣٥ شمالًا وخطى طول ٣٢، ٣٤ شرقًا، وتبلغ المسافة بين الطرف الشمالى الشرقى للجزيرة وبين سواحل الشام بالقرب من مدينة اللاذقية حوالى ٥٢ ميلًا جغرافيًا، انظر : د. عبد الرحمن محمد « قبرص بين السيادة الإسلامية والبيزنطية ٦٩ ـ ٣٥٥هـ/٦٨٨ ـ ٩٦٥م » ص ٦٠، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، عدد (٥١) عام ١٩٩٨م.

ورودس[١] هما القاعدتين اللتين كانت ينطلق منهما غارات هؤلاء الصليبيين[٢] ـ ، ومن ذلك ما حدث بالإسكندرية[٣] عامى ٨١٤هـ/١٤١١م[٤] ، وما حدث ببيروت[٥] وطرابلس[٦]

---

(١) **رودس** : جزيرة صغيرة تمتد من الجنوب الغربى إلى الشمال الشرقى ، على مسافة عشرة أميال من الساحل الجنوبى لآسيا الصغرى ، وتم فتحها من قبل العثمانيين على أيدى السلطان سليمان القانونى عام ٩٢٩هـ/ ١٥٢٢م ، وتبلغ مساحة رودس حوالى ٤٥٣ ميلًا مربعًا ، وطولها لا يزيد عن ٤٥ ميلًا ، انظر : د. كمال الدسوقى « العثمانيون وقراصنة رودس » ص ١٦٩، مجلة البحث العلمى والتراث الإسلامى ، مكة المكرمة ، العدد (٢) عام ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م .

(٢) عبد الصمد الصالح «هدية العبد القاصر إلى الملك الناصر» ص ٩، مخطوط بدار الكتب المصرية برقم (٢٦٠٢) ، د. على حبيبة « الحركة الصليبية : الظاهرة « دوافعها ، مواجهتها ، نتائجها » ص ٨، مكتبة الشباب ، القاهرة ، ١٩٩٩م ، د. أحمد دراج « المماليك والفرنج فى القرن التاسع الهجرى » ص ٧، ٢١، ٣٢، ٦٧، ١٠٥، دار الفكر العربى ، القاهرة ، ١٩٦١، د. سهير محمد « الحروب الصليبية المتأخرة » ص ٢٣٢، دار عين ، القاهرة ، ط ١ (٢٠٠١م) ، ح .هايد « تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى » ح ٣ ص ٣١٤، ترجمة أحمد رضا ، الهيئة العامة للكتاب ، ١٩٤٩م ، د. سعيد عاشور « قبرص والحروب الصليبية » ص ٧٤، ماجستير ، آداب القاهرة ، ١٩٩٤م ، د. سامى سلطان « الاستبارية فى رودس » ص ٣٩١، دكتوراة ، آداب القاهرة ، ١٩٧٥م ، محمد فتحى « دور القوى الأوربية فى الحصار الاقتصادى على سلطنة المماليك » ص ١٦، ماجستير ، آداب القاهرة ، ٢٠٠٠م ، وفاء محمد « ساحل الشام فى العصر المملوكى » ص ٩٧.

(٣) **الإسكندرية** : مدينة بناها الأسكندر ذو القرنين على شاطئ البحر المتوسط ، وكانت فى العصر المملوكى ميناء تجارى هام ، وكذلك كانت عامرة بالجوامع والمساجد والخوانق والأسواق ومعامل القماش ، انظر : العمرى « مسالك الأبصار » ص ٨٨.

(٤) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٧ ص ٢٤.

(٥) **بيروت** : مدينة مشهورة على البحر المتوسط ، بينها وبين صيدا ثلاث فراسخ ، تمتعت بازدهار تجارى فى العصر المملوكى ، حيث كانت ميناء دمشق الذى تتوارد إليها خيرات البلاد المجاورة لتصدر عن طريقها ، انظر : وفاء محمد « ساحل الشام فى العصر المملوكى » ص ٣٤.

(٦) **طرابلس** : طرابلس الشام ، وردت فى بعض المصادر العربية باسم « أطرابلس » ـ بزيادة ألف مهموزة ـ تمييزًا لها عن مدينة طرابلس الليبية ، وطرابلس الشام تقع على شاطئ البحر المتوسط فى منتصف الطريق الساحلى الشرقى للبحر المتوسط بين الأسكندرونة فى الشمال وغزة فى الجنوب ، انظر : د. السيد عبد العزيز سالم « طرابلس الشام فى التاريخ الإسلامى » ص ٤، وفاء محمد « ساحل الشام فى العصر المملوكى » ص ٣٥.

عام ٨٠٦هـ/١٤٠٣م[١] وصيدا[٢] عام ٨٤٣هـ/١٤٣٩م[٣].

فلقد رصدت لنا المصادر التاريخية اشتراك العلماء فى الحملات العسكرية التى قامت بها الدولة المملوكية لفتح جزيرتى «قبرص ورودس»[٤] ـ اللتان كانتا ينطلق منهما غارات الصليبيين ـ، حيث أرسل السلطان برسباى[٥] ثلاث حملات بحرية مظفرة تجاه قبرص فى ثلاث سنوات متتالية (٨٢٨، ٨٢٩، ٨٣٠هـ/ ١٤٢٤، ١٤٢٥، ١٤٢٦م)، ولقد تم الفتح فى الحملة الثالثة عام ٨٣٠هـ/١٤٢٦م، وأصبحت قبرص من البلاد التابعة للدولة المملوكية[٦]، ولقد شارك علماء[٧] مصر والشام فى هذه الحملات الثلاث[٨]، أمثال المحب أبو السعادات[٩] «ت ٨٥٩هـ»[١٠]، وابن

---

(١) العينى «عقد الجمان» «٨٠٦ ـ ٨١٧هـ» ص ١٩٧، مخطوط بدار الكتب المصرية، برقم مكروفيلم (٣٥٠٩٥)، ابن شهبة «تاريخ ابن شهبة» ص ٣٣٢.

(٢) **صيدا**: مدينة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، من أعمال دمشق فى العصر المملوكى، بينها وبين مدينة صور ستة فراسخ، انظر: البغدادى «صفى الدين عبد المؤمن «ت ٧٣٩هـ»» «مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع» ص ١٧٤، دار الكتب العلمية، بيروت، «د. ت»، ياقوت الحموى «ت ٦٣٢هـ» «المشترك وضعًا والمفترق صقعًا» ص ٢٨٧، عالم الكتب، بيروت، ط ٢ (١٤٠٦هـ/١٩٨٦م).

(٣) ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٩ ص ٩٩.

(٤) قبرص ورودس: سبق التعريف بهما، انظر: ص ٧٥، ٧٦.

(٥) برسباى: انظر ص ١٠.

(٦) د. محمد عبد الغنى «الملحمة المصرية عصر المماليك الجراكسة» ص ٦٢ ـ ٧٩، مكتبة مدبولى، ط ١ (٢٠٠٢م)، د. سامى سلطان «الاستبارية فى رودس» ص ٤٠١ ـ ٤٠٩، د. سعيد عاشور «قبرص والحروب الصليبية» ص ٩٠، ١٠٩.

(٧) لم تذكر الحوليات التاريخية المملوكية شيئًا عن اشتراك العلماء فى تلك الحملات، حيث ذكرت فقط إرسال السلطان برسباى ثلاث حملات بحرية لفتح جزيرة قبرص، بينما جاء ذكر اشتراكهم فى تلك الحملات فى كتب التراجم، وكان ـ للأسف ـ بشكل موجز ومقتضب.

(٨) ابن تغرى «النجوم الزاهرة» ح ١٤ ص ١٢٢، السخاوى «التبر المسبوك» ص ٦٢.

(٩) المحب أبو السعادات: محمد بن أحمد، تفقه على شيوخ عصره، درس التفسير، والفقه والحديث، توفى ٨٥٩هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٧ ص ١١٧.

(١٠) السخاوى «الضوء اللامع» ح ٧ ص ١١٧.

obeikandi.com

الأمشاطى[١] « ت ٨٦٧هـ »[٢] ، وأمين الآقصراى[٣] « ت ٨٨٠هـ »[٤] ، وبرهان الدين البقاعى[٥] « ت ٨٨٥هـ »[٦] .

كذلك شارك علماء مصر والشام فى الحملات التأديبية التى قام بها السلطان جقمق[٧] ضد جزيرة رودس فى عام (٨٤٤، ٨٤٧، ٨٤٨هـ/ ١٤٤٠، ١٤٤٣، ١٤٤٤م) ، وأثمرت تلك الحملات ثمرتها ، حيث تم عقد الصلح مع جزيرة رودس عام ٨٤٩هـ ، وهدأت بعدها غارات الصليبيين بشكل كبير[٨] ، ولقد شارك العلماء[٩] فى هذه الحملات[١٠] ، أمثال برهان الدين البقاعى « ت ٨٨٥هـ »[١١] .

وكذلك رصدت لنا المصادر التاريخية تصدى علماء مصر والشام لهذا الخطر الصليبى ، حيث ذكر المؤرخون فى ثنايا تراجمهم لعلماء مصر والشام قيام هؤلاء العلماء

---

(١) ابن الأمشاطى : محمد بن عبد الرحمن ، تفقه على شيوخ عصره ، درس وأفتى ، تولى إفتاء دار العدل بمصر ، توفى ٨٦٧هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٧ ص ١٤٣.

(٢) البقاعى « عنوان الزمان » ح ٢ ص ٥٦٥.

(٣) أمين الآقصراى : يحيى بن محمد ، كان من كبار علماء الحنفية بمصر ، درس وأفتى ، توفى ٨٨٠هـ ، انظر : ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٣ ص ١٠٧.

(٤) السخاوى « الضوء اللامع » ح ١٠ ص ٢٤١.

(٥) برهان الدين البقاعى : إبراهيم بن عمر ، تفقه على شيوخ عصره ، من كبار علماء الحنابلة بدمشق ، درس وأفتى ، توفى ٨٨٥هـ ، انظر : ابن المبرد « متعة الأذهان » ح ٢ ص ٥١.

(٦) البقاعى « عنوان الزمان » ح ١ ص ١٤٥، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ١٠١، السخاوى « التبر المسبوك » ص ٦٢.

(٧) جقمق : انظر ص ١١.

(٨) د. ناجلا محمد « مصر والبندقية : العلاقات السياسية والاقتصادية فى عصر المماليك » ص ٨٩، دار عين للنشر ، القاهرة ، ط ١ (٢٠٠١م) ، د. سامى سلطان « الاستبارية فى رودس » ص ٤١٣، ٤٢٥.

(٩) لم تذكر المصادر التاريخية أسماء العلماء الذين شاركوا فى الحملات التى وجهها جقمق لفتح رودس ، باستثناء برهان الدين البقاعى الذى ذُكِر لدى ابن حجر العسقلانى فى كتابه « إنباء الغمر » ، والسخاوى فى كتابه « التبر المسبوك » .

(١٠) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٩ ص ٢٠٠، السخاوى « التبر المسبوك » ص ٨٨.

(١١) ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٩ ص ٢٠٠، السخاوى « التبر المسبوك » ص ٨٨.

بالرباط[١] بالثغور المصرية والشامية لصد غارات[*] الصليبيين، فلقد رابط بثغر دمياط[٢] من العلماء ـ على سبيل المثال ـ ابن النحاس[٣] «ت ٨١٤هـ»[٤]، وعبد الرحمن الحنفى[٥] «ت ٨٤٣هـ»[٦]، ورابط بثغر الإسكندرية[٧] من العلماء أبو هريرة بن النقاش[٨] «ت ٨١٩هـ»[٩]، والبدر البهوتى[١]

---

(١) **الرِباط**: قلعة حصينة يرابط فيها حامية لدفع عادية الأعداء، حيث جرت العادة عقب الفتوحات الإسلامية الأولى بتشييد الربط بالثغور ـ التى هى موضع المخافة من العدو ـ، وكان التصميم المعمارى لهذه الربط عبارة عن مبانى ذات تخطيط مستطيل يتألف من صحن أوسط تحيط به أبراج فى الأركان، وبالجانب القبلى للصحن مُصلى، وبالجوانب الأخرى حجرات صغيرة بغير نوافذ للمرابطين، ولا يؤدى إلى الرباط إلا مدخل واحد، انظر: عميد أ.ح محمود نديم «الفن الحربى للجيش المصرى فى العصر المملوكى» ص ٣٥، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣، د. عاصم محمد «خانقاوات الصوفية فى مصر فى العصر الأيوبى والمملوكى» ص ٩٨، د. عفيف البهنسى «الفن الإسلامى» ص ٢٧٣، دار طلاس للنشر، ١٩٨٦، دولت عبد الكريم «الخوانق فى مصر فى العصر الأيوبى والمملوكى» ص ٢٠، دكتوراة، آداب القاهرة، ١٩٧٣م.

(*) لم توضح المصادر التاريخية ماهية الدور الدفاعى الذى قام به العلماء فى تلك الربط لصد غارات الصليبيين.

(٢) **دمياط**: مدينة على ضفة أحد فرقى النيل وهى موضع غِرَّة للعدو من البحر، انظر: العمرى «مسالك الأبصار» ص ٩٣.

(٣) ابن النحاس: أحمد بن إبراهيم، تفقه على شيوخ عصره، وكان ملازمًا للجهاد والربط، توفى ٨١٤هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ٢٠٣.

(٤) السخاوى «وجيز الكلام» ح ٢ ص ٤١٦، السخاوى «الضوء اللامع» ح ١ ص ٢٠٣، ابن العماد «شذرات الذهب» ح ٧ ص ١٠٥.

(٥) عبد الرحمن الحنفى: عبد الرحمن الحنفى، تفقه على شيوخ عصره، وبرع فى الفقه، وكان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وكان كثير الرباط بثغر دمياط، توفى ٨٤٣هـ، انظر: السخاوى «وجيز الكلام» ح ٢ ص ٥٦٨.

(٦) السخاوى «وجيز الكلام» ح ٢ ص ٥٦٨، ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٩ ص ٩٩.

(٧) الإسكندرية: انظر: ص ٧٦.

(٨) أبو هريرة بن النقاش: عبد الرحمن بن محمد، تفقه على شيوخ عصره، درس، وتولى خطابة جامع ابن طولون، توفى ٨١٩هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٤ ص ١٤٠.

(٩) ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٧ ص ٢١٥.

« ت ٨٤٥هـ »[٢] ، ورابط بثغر بيروت[٣] ابن قديدار[٤] « ت ٨٣٦هـ »[٥] ، وأبو البركات محمد[٦] « ت ٩٣٣هـ »[٧] ، ورابط بثغر يافا[٨] ابن أرسلان[٩] « ت ٨٤٤هـ »[١٠] ، ورابط بثغر صيدا[١١] شمس الدين القونوى « ت ٧٨٨هـ »[١٢] .

---

(١) البدر البهوتى : حسن بن على ، تفقه على شيوخ عصره ، كان من علماء الحديث ، توفى ٨٤٥هـ ، انظر : السخاوى « الضوء الامع » ح ٣ ص ١١٦.

(٢) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٣ ص ١١٦، البقاعى « عنوان الزمان » ح ٢ ص ١٦١.

(٣) **بيروت** : مدينة مشهورة على البحر المتوسط ، بينها وبين صيدا ثلاث فراسخ ، تمتعت بازدهار تجارى فى العصر المملوكى ، حيث كانت ميناء دمشق الذى تتوارد إليها خيرات البلاد المجاورة لتصدر عن طريقها ، انظر : وفاء محمد « ساحل الشام فى العصر المملوكى » ص ٣٤.

(٤) ابن قديدار : محمد بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، كان كثير الجهاد والمرابطة ببيروت ، توفى ٨٣٦هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٦ ص ٣٢٧.

(٥) المقريزى « درر العقود الفريدة » ح ٣ ص ٣٤٧، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٦ ص ٣٢٧، ابن العماد « شذرات الذهب » ح ٧ ص ٢١٨، مجهول « حوليات دمشقية » ص ٦٤، ابن تغرى « المنهل الصافى » ح ٩ ص ٣١٠.

(٦) أبو البركات محمد : محمد بن عبد الرحمن ، تفقه على شيوخ عصره ، وكان ملازمًا للرباط ببيروت ، وأنشأ بها برج للمرابطة ، توفى ٩٣٣هـ ، انظر : ابن طولون « ذخائر القصر » ص ٤٠٤ ـ ٤١٤.

(٧) ابن طولون « ذخائر القصر » ص ٤٠٧ ـ ٤١٤.

(٨) **يافا** : هى ميناء هام فيه مرسى السفن الواردة إلى القدس والمُقلعة عنها ، وكان هذا الميناء يستقبل الحجاج المسيحيين فى العصر المملوكى ، اتظر : وفاء محمد « ساحل الشام فى العصر المملوكى » ص ٢٨.

(٩) ابن أرسلان : أحمد بن حسين ، تفقه على شيوخ عصره ، درس وأفتى ، وله مصنفات عديدة ، وكان ملازمًا للرباط بيافا وأنشأ بها برج للمرابطة ، توفى ٨٤٤هـ ، انظر : مجير الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ١٧٤.

(١٠) البقاعى « عنوان الزمان » ح ١ ص ٦٧، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١ ص ٢٨٥، مجير الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ١٧٤.

(١١) صيدا : انظر : ص ٧٧.

(١٢) شمس الدين القونوى : محمد بن يوسف ، تفقه على شيوخ عصره بدمشق ، وكان كثير الرباط بصيدا وبيروت ، وبنى برجًا للمرابطة على الساحل ، توفى ٧٨٨هـ ، انظر : ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٢ ص ٢٤٤.

(١٣) ابن طولون « المعزة فيما قيل بالمزة » ص ٢٢، مكتبة القدسى والبُدير ، دمشق ، ١٣٤٨هـ ، ابن حجر « إنباء الغمر » ح ٢ ص ٢٤٤.

obeikandl.com

* العلماء والتركمان(*) :

أقام التركمان لأنفسهم دويلات أشهرها دويلة بنى دلغادر(١) ، ودويلة بنى رمضان(٢) ، ودويلة بنى قرمان(٣) ، .....

(*) **التركمان** : اختلف فى وجه تسمية التركمان تركمان ، فقيل سمّوا بذلك لأن كل من أسلم من أتراك خراسان وما وراء النهر فى صدر الإسلام كان يقال له صار « ترجمانًا » ؛ لكونه ترجمانًا بين العرب الفاتحين بسبب اختلاطه معهم ، وتعلمه اللسان منهم وبين من لم يُسلم من الأتراك حتى صار ذلك علمًا لهم أى لمن أسلم منهم ، ثم قيل بالتحريف تركمان ، وقيل أنهم سمّوا بذلك لأن هؤلاء لمّا قدموا إلى تلك الديار واختلطوا بأقوامها وامتزجوا بسكانها خرج أولادهم عن صرافة لون الأتراك وأشكالهم بمُقتضى طبيعة الإقليم ، فقيل لهم « ترك مانند » يعنى يشبهون الترك ، ثم اختصر هذا اللقب فقيل « تركمان » ، ولقد سيطر التركمان على بلاد العراق خلال القرن التاسع الهجرى ، وأقاموا لأنفسهم دويلات بها أهمها دويلة «القراقيونلو» « أصحاب الخروف الأسود » ـ أو الشاه السوداء ـ ، ودويلة «آق قويونلو» «طائفة الخروف الأبيض» « الخراف البيض » ـ أو الشاه البيضاء ـ ، انظر : م. م. الرَّمزى « تلفيق الأخبار وتلقيح الآثار فى وقائع قزان وبلغار وملوك التتار » ح ١ ص ٣٤٣، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ (٢٠٠٢م) ، كليفورد ا. بوزورث « الأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى » ص ٢٢٨ ـ ٢٣٤، ترجمة حسين على ، دار عين للنشر ، القاهرة ، ١٩٩٥م ، فرج محمد « العلاقات الخارجية لدولة المماليك فى العراق ١٧٤٩م ـ ١٨٣١م » ص ٥، ماجستير ، آداب القاهرة ، ١٩٦٥م .

(١) **دويلة بنى دلغادر** : قامت دويلة بنى دلغادر عام ٧٤٠هـ ، وكان أول ملوكها قراجا بن دلغادر « ت ٧٥٤هـ » ، وشملت أملاك هذه الدولة مرعش وأبلستين ، وأنقرة وغيرها ، لمزيد من الإيضاح ، انظر : د. أحمد فؤاد « الفتح العثمانى للشام ومصر ومقدماته من واقع الوثائق والمصادر التركية والعربية المعاصرة له » ص ٦٤، دار النهضة العربية ، ١٩٧٦م ، د. إبراهيم طرخان « مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة » ص ١١٦، حسناء حسين «الإمارات التركمانية على حدود دولة المماليك» ص ٢٢، ماجستير ، كلية البنات جامعة عين شمس ، ٢٠٠٢م .

(٢) **دويلة بنى رمضان** : كانت دويلة بنى رمضان ضمن الإمارات التابعة للمماليك فى الأناضول ، وأول ملوكها أحمد بن رمضان ـ ولى الإمارة قبل عام ٧٨٠هـ ـ ، وشملت أملاكها سيس وطرسوس وأطنه وغيرها ، ولمزيد من الإيضاح ، انظر : د. أحمد فؤاد « الفتح العثمانى للشام » ص ٧٠، د. إبراهيم طرخان « مصر فى عصر دولة المماليك » ص ١١٦.

(٣) **دويلة بنى قرمان** : تأسست هذه الدويلة أواخر القرن الثامن الهجرى ، وكان أول ملوكها كريم الدين قرمان بن نورة ، وشملت أملاكها سيواس وقونية وقرمان وغيرها ، لمزيد من الإيضاح انظر : إبراهيم طرخان « مصر فى عصر دولة المماليك » ص ١١٦.

ودويلة الشاه البيضاء[١] ، وديلة الشاه السوداء[٢] ، وكان المفترض أن تكون هذه الدويلات تابعة لسلطنة المماليك فى مصر والشام ، ولكن الحاصل فعلًا هو أنها لم تظل على ولائها للمماليك ، وإنما دأبت على استغلال الظروف للخروج على سلطنة المماليك ، بل ومهاجمة حدود الدولة المملوكية الشمالية ، ولقد اشتد هذا الخطر التركمانى فى القرن التاسع الهجرى بسبب كثرة الفتن والقلاقل الداخلية بدولة المماليك ، وظهور العثمانيين الذين كانو يتدخلون فى شؤون الدويلات التركمانية من ناحية وفى العلاقات بينهم وبين سلطنة المماليك من ناحية أخرى[٣] .

فلقد ذكرت لنا المصادر التاريخية قيام قرايلوك[٤] عثمان ـ زعيم دولة الشاه البيضاء ـ بمهاجمة حلب عام ٨٣٤هـ/١٤٣٠م مكبدًا الدولة المملوكية خسائر فى الأموال والأرواح[٥] ، ومن ذلك أيضًا قيام شاه سوار[٦] ـ زعيم دولة بنى دلغادر ـ بمهاجمة حدود

---

(١) **دويلة الشاه البيضاء** : أو « آق قويونلو » ـ «طائفة الخروف الأبيض» ـ ، تأسست ٧٨٠هـ فى ديار بكر وشرقى الأناضول وأذربيجان ، وأول حكامها قرايلوك عثمان « ٧٨٠ ـ ٨٣٩هـ » ، انظر : لمزيد من الإيضاح : كليفورد. ا. بوزورث « الأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى » ص ٢٣٤، حسناء حسين «الإمارات التركمانية» ص ٢٦.

(٢) **دويلة الشاه السوداء** : أو « القراقيونلو » ـ «أصحاب الخروف الأسود» ـ ، تأسست عام ٧٨٢هـ ، وتمركزت هذه الدويلة حول بحيرتى « وان » ، و « أتورميا » ، ومن هناك بسطوا سيطرتهم شيئًا فشيئًا على أذربيجان ، والأطراف الشرقية لشبه جزيرة الأناضول ، وكانت هذه الدويلة شيعية ، لمزيد من الإيضاح ، انظر : كيلفورد. ا. بوزورث « الأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى » ص ٢٢٨، ٢٣٢، د. أحمد فؤاد « الفتح العثمانى للشام » ص ٦٨، وبرتولد شبولر « العالم الإسلامى فى العصر المغولى » ص ١٣٥، ترجمة خالد أسعد ، دار حسان للطباعة ، دمشق ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، حسناء حسين «الإمارات التركمانية» ص ٢٦، ٢٩

(٣) د. سعيد عاشور « مصر والشام فى عصر الأيوبيين والمماليك » ص ٣٨٠ ـ ٣٨٤، د. إبراهيم طرخان « مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة » ص ١١٦ ـ ١٤١.

(٤) **قرايلوك** : هو عثمان بن قطلوبك بن طورغلى ، مؤسس دولة الشاه البيضاء عام ٧٨٠هـ ، وكانت علاقاته السياسية مع الدولة المملوكية سيئة ، توفى عام ٨٣٩هـ ، انظر السخاوى « الضوء اللامع » ح ٥ ص ١٣٥.

(٥) المقريزى « السلوك » ح ٣ ص ٤٦.

(٦) شاه سوار : انظر هامش ٣ ص ٢٣.

الدولة المملوكية الشمالية كحلب وغيرها عام ٨٧٢هـ/١٤٦٧م، مكبدًا الدولة المملوكية خسائر كثيرة[١].

ولقد رصدت لنا المصادر التاريخية دورًا للعلماء فى صد خطر التركمان من مصر والشام، حيث كانت الدولة المملوكية تلجأ إلى العلماء ليقوموا بتعبئة المصريين والشاميين للإنضمام إلى صفوف الجيش للجهاد ضد التركمان، ففى عام ٨٢١هـ/١٤١٨م عندما علم السلطان شيخ[٢] بعزم قرايوسف[٣] ـ زعيم دولة الشاه السوداء ـ على مهاجمة حلب، فاستدعى شيخ علماء مصر وأخبرهم بالأمر، فما كان من علماء مصر أمثال ـ جلال الدين البلقينى[٤]، وجمال الدين الأقفهسى[٥] ـ إلا أن طافوا نواحى البلاد يدعون المصريين للجهاد ضد قرايوسف، مستعينين على ذلك بحشد من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تُحبب فى الجهاد وتدعو إليه، وتبين مكانة المجاهدين عند الله، محذرين من التقاعس عن قتال العدو، لما فيه من ذلٍ للأمة ومعصية لله[٦].

كما كتبت المراسيم السلطانية إلى علماء[*] الشام بتعبئة الشاميين لجهاد قرايوسف ـ كما حدث بمصر[٧] ـ.

---

(١) ابن إياس «بدائع الزهور» ح ٢ ص ٤٧.

(٢) شيخ: انظر: ص ٣٧.

(٣) قرايوسف: قرايوسف بن قرا محمد، استبد بملك العراق، كان شديد الظلم، خربت فى عهده العراق، انتهج سياسة عدائية تجاه المماليك، توفى ٨٢٣هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٦ ص ٢١٦.

(٤) جلال الدين البلقينى: عبد الرحمن بن عمر، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء الشافعية بمصر، وكذا قضاء العسكر وإفتاء دار العدل بها، درس وأفتى، توفى عام ٨٢٤هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٤ ص ١٠٦.

(٥) جمال الدين الأقفهسى: عبد الرحمن بن أحمد، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء المالكية بمصر، درس وأفتى، توفى ٨٢٧هـ، انظر: السخاوى «الذيل التام» ح١ ص ٢٧.

(٦) العينى «عقد الجمان» ص ٣١٩، ابن حجر العسقلانى «إنباء الغمر» ح ٧ ص ٣١٤، المقريزى «السلوك» ح ٤ ص ٤٥٩، ابن الصيرفى «نزهة النفوس» ح ٢ ص ٤١٥.

(*) لم تذكر المصادر التاريخية أسماء علماء الشام ودورهم فى تعبئة الشاميين قد قرايوسف.

(٧) المقريزى «السلوك» ح ٤ ص ٤٦٠، ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٧ ص ٣٨٦.

obeikandl.com

وعندما تجدد خطر قرايوسف[١] عام ٨٢٣هـ/١٤٢٠م حيث وردت الأخبار بأنه يعزم على مهاجمة البلاد الشامية، فقام علماء مصر أمثال ـ جلال الدين البلقينى[٢]، وجمال الدين الأفقهسى[٣] ـ بتعبئة المصريين للجهاد ضد قرايوسف ـ كما حدث عام ٨٢١هـ[٤] ـ.

ومن ذلك ـ أيضًا ـ ما ذكرته المصادر التاريخية عام ٨٧٢هـ/١٤٦٧م عندما ورد إلى السلطان قايتباى[٥] خبر غارات شاه سوار[٦] ـ زعيم بنى دلغادر ـ على حلب وغيرها من المدن الشامية وقيامه بأعمال القتل والنهب ضد الأهالى، فاستدعى علماء[٧] مصر وأخبرهم بالأمر، فقاموا بتعبئة المصريين للجهاد ضد شاه سوار[٨].

كذلك شارك علماء[٩] مصر والشام فى الحملات العسكرية التى شنتها الدولة المملوكية لردع التركمان، فلقد رافق العلماء ـ أمثال شمس الدين الديرى[١٠]، شهاب الدين الباعونى[١١] ـ

---

(١) قرايوسف: انظر: ص ٨٣.

(٢) جلال الدين البلقينى: انظر: ص ٨٣.

(٣) جمال الدين الأفقهسى: عبد الرحمن بن أحمد، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء المالكية بمصر، درس وأفتى، توفى ٨٢٧هـ، انظر: السخاوى «الذيل التام» ح ١ ص ٢٧.

(٤) ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٧ ص ٣٨٧، العينى «عقد الجمان» ص ٣٥، ابن الصيرفى «نزهة النفوس» ح ٢ ص ٣٧.

(٥) قايتباى: انظر: ص ٢٢.

(٦) شاه سوار: انظر: ص ٢٣.

(٧) لم تذكر المصادر التاريخية أسماء العلماء الذين استدعاهم قايتباى ليعرض عليهم خطر شاه سوار.

(٨) ابن إياس «بدائع الزهور» ح ٣ ص ٧٥.

(٩) لم توضح المصادر التاريخية طبيعة دور العلماء فى تلك الحملات العسكرية التى شنتها الدولة المملوكية لردع التركمان، واقتصرت فقط على ذكر مرافقة العلماء للجيش المملوكى فى حملاته العسكرية.

(١٠) شمس الدين الديرى: محمد بن سعد، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء الحنفية بمصر، درس وأفتى، توفى ٨٢٧هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٤ ص ١٥.

(١١) شهاب الدين الباعونى: أحمد بن ناصر بن خليفة، تفقه بمشايخ عصره، ولى قضاء الشافعية بدمشق، وخطابة الجامع الأموى بدمشق، توفى ٨١٦هـ، انظر: ابن شهبة «طبقات الشافعية» ح ٢ ص ٢٦٣.

obeikandl.com

الحملة العسكرية التى قادها السلطان شيخ[١] لردع قرايوسف[٢] ـ زعيم الشاه السوداء ـ عام ٨٢٠هـ/١٤١٧م[٣].

كما رافق علماء مصر ـ أمثال ابن حجر العسقلانى[٤]، وبدر الدين العينى[٥]، وعلماء الشام ـ أمثال برهان الدين البقاعى[٦]، ونجم الدين القرقشندى[٧] ـ الحملة العسكرية التى قادها السلطان برسباى[٨] لردع قرايلوك[٩] ـ زعيم الشاه البيضاء ـ عام ٨٣٦هـ/١٤٣٢م[١٠].

جـ ـ العلماء والسفارات[*]:

لقد كان ديوان الإنشاء فى العصر المملوكى هو الجهاز الإدارى الذى كانت تخرج منه كافة المراسلات والسفارات الخاصة بالدولة سواء تتعلق بالنواحى السياسية أو الاقتصادية

---

(١) شيخ: انظر ص ٣٧.

(٢) قرايوسف: انظر: ص ٨٣.

(٣) ابن تغرى «النجوم الزاهرة» ح ١٣ ص ١٩٦، العينى «عقد الجمان» ص ٦٧، ابن الصيرفى «نزهة النفوس» ح ٢ ص ٣٧.

(٤) ابن حجر العسقلانى: أحمد بن على، تفقه على شيوخ عصره، برع فى علم الحديث، تولى قضاء الشافعية بمصر، توفى ٨٥٢هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٢ ص ٩٧.

(٥) بدر الدين العينى: محمود بن أحمد، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء الحنفية بمصر، درس وأفتى، توفى ٨٥٥هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ١٠ ص ١٣١.

(٦) برهان الدين البقاعى: انظر: ص ٧٨.

(٧) نجم الدين القرقشندى: محمد بن أحمد، تفقه على شيوخ عصره، ناب فى قضاء الشافعية بمصر، توفى ٨٧٦هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ٦ ص ٣٢٢.

(٨) قايتباى: انظر ص ٢٢.

(٩) قرايلوك: انظر: ص ٨٢.

(١٠) البقاعى «عنوان الزمان» ح ١ ص ١٦٣، ح٢ ص ٤١٩، العينى «عقد الجمان» ص ٤٢٨.

(*) **السفارات**: «سفر» بين القوم أى أصلح، والسفير هو المصلح بين القوم، هذا ما ذكرته كتب اللغة عن معنى السفير، و«اصطلاحًا» السفير شخص يتكلم باسم من أرسله ويقوم بإنجاز مهمة محددة له =

وغيرها[١] ، ولقد كانت رئاسة ديوان الإنشاء ـ فى القرن التاسع الهجرى ـ قاصرة على العلماء[٢] ، وكان متوليها يُطلق عليه كاتب السر[*] ، والذى كان من مهامه الرئيسية الإشراف على المكاتبات الرسمية التى ترد إلى السلطان من مختلف الدول وإعداد الردود عليها ، فضلًا عن إعداد الرسائل التى يبعث بها السلطان إلى مختلف رؤساء الدول[٣] .

ومن أشهر علماء مصر الذين تولوا كتابة السر بها ناصر الدين[٤] البارزى « ت ٨٢٣هـ »[٥] ، وكمال الدين البارزى[٦] « ت ٨٦٥هـ »[٧] ، وابن مزهر[٨]

= عند المرسل إليه ، وقد عرف التراسل فى الدولة الإسلامية فى عهد النبى ﷺ وخلفاءه من بعده ، ولقد كان من أهم الشروط التى كان يجب أن تتوافر فى السفير ـ كما يذكر القلقشندى والخالدى ـ الأمانة وطلاقة اللسان ومعرفته اللغات ، والجرأة ، ولمزيد من الإيضاح : انظر : الخالدى « المقصد الرفيع » ص ١٠١، القلقشندى « صبح الأعشى » ح ٦ ص ٣٥٩، منى إبراهيم « السفارات الأجنبية فى مصر عصر سلاطين المماليك » ص ١٠٣، ماجستير ، آداب القاهرة ، ١٩٧٥م .

(١) الخالدى « المقصد الرفيع » ص ١٠١، العمرى « المسالك والممالك » ص ٦٠، المقريزى « المواعظ والاعتبار » ح ٣ ص ٧٣١، القلقشندى « صبح الأعشى » ح ١ ص ١٤٦.

(٢) الخالدى « المقصد الرفيع » ص ١٢، ابن كنان « حدائق الياسمين » ص ١٦٧، المقريزى « المواعظ والاعتبار » ح ٣ ص ٧٣١.

(*) سوف يتحدث الباحث عن ولاية « وظيفة » « كاتب السر » بشىء من التفصيل بالفصل الثانى « العلماء والإدارة » .

(٣) العمرى « المسالك والممالك » ص ٦٠، القلقشندى « صبح الأعشى » ح ١ ص ١٤٦، المقريزى « المواعظ والاعتبار » ح ٣ ص ٧٣١، الخالدى « المقصد الرفيع » ص ١٠١.

(٤) ناصر الدين البارزى : محمد بن محمد بن عثمان ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء حلب ، وحماة ، وكتابة السر بمصر ، توفى ٨٢٣هـ ، انظر : ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٣ ص ٢٩٨.

(٥) ابن قاضى شهبة « طبقات الشافعية » ح ٢ ص ٣٣٣، المقريزى « درر العقود » ح ٣ ص ١١٥، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٣ ص ٢٩٨.

(٦) كمال الدين البارزى : محمد بن محمد ، تفقه بشيوخ عصره ، تولى قضاء دمشق ، وكتابة السر بمصر ، توفى عام ٨٦٥هـ ، انظر : ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٦٢.

(٧) البقاعى « عنوان الزمان » ح ٤ ص ٦٨٣، ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٦٢، ابن تغرى « النجوم الزاهرة » ح ١٥ ص ٢٩٠.

(٨) ابن مزهر : محمد بن عبد الرحمن ، تفقه على شيوخ عصره ، ولى إفتاء دار العدل بمصر ، وكتابة السر بها ، توفى ٨٩٣هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١١ ص ٨٨.

« ت ٨٩٣هـ »[١] ، ومن أشهر علماء دمشق الذين تولوا كتابة السر بها موفق الدين العباسى[٢] « ت ٨٩٣هـ »[٣] ، وقطب الدين الخيضرى[٤] « ت ٨٩٤هـ »[١٠] ، ومن أشهر علماء حلب الذين تولوا كتابه السر بها أبو بكر[٥] النصيبى « ت ٨٦٣هـ »[٦] ، وأبو الفضل ابن الشحنة[٧] « ت ٨٦٥هـ »[٨] .

كذلك تذكر المصادر التاريخية قيام علماء مصر والشام بأعمال ذات صبغة دبلوماسية تهدف إلى حقن الدماء وإخماد الحروب التى كانت تخوضها الدولة المملوكية ضد أعدائها ، ومن ذلك ما تذكره المصادر التاريخية عام ٨٢٣هـ/١٤٢٠م من اختيار السلطان شيخ[٩] لبدر الدين العينى[١٠] ـ كمبعوث خاص ـ للسلطان إلى بلاد بنى قرمان[١١] فى مهمة

---

(١) ابن شاهين « المعجم المفنن » ص ٥٢، السخاوى « الضوء اللامع » ح ١١ ص ٨٨.

(٢) موفق الدين العباسى : عبد الرحمن بن أحمد ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى كتابة سر مصر ونظر جيشها ، توفى ٨٩٣هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ٤٩.

(٣) ابن مكى « السحب الوابلة » ح ٢ ص ٤٧٣، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٤ ص ٤٩، ابن الحمصى « حوادث الزمان » ح ١ ص ٣٠٠.

(٤) قطب الدين الخيضرى : محمد بن محمد بن عبد الله ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الشافعية بدمشق ، ووكالة بيت المال بها ، توفى ٨٩٤هـ ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ٩ ص ١٢١، ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٧٨.

(٥) ابن طولون « قضاة دمشق » ص ١٧٨، ابن الحمصى « حوادث الزمان » ح ١ ص ١٨٣، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٩ ص ١٢١.

(٦) أبو بكر النصيبى : أبو بكر بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، درس بمدارس حلب ، وولى كتابة السر بها ، انظر : السخاوى « الضوء اللامع » ح ١١ ص ٨٧.

(٧) السخاوى « الضوء اللامع » ح ١١ ص ٨٧.

(٨) أبو الفضل بن الشحنة : محمود بن إبراهيم ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء الحنفية بحلب ، درس وأفتى ، توفى ٨٦٥هـ ، انظر : ابن العجمى « كنوز الذهب » ح ٢ ص ٢٠٩.

(٩) ابن العجمى « كنوز الذهب » ح ٢ ص ٢٠٩.

(١٠) شيخ : انظر : ص ٣٧.

(١١) بدر الدين العينى : انظر : ص ٨٥.

(١٢) بلاد بنى قرمان : انظر هامش ص ٨١.

دبلوماسية، ليأخذ الولاء للسلطان من نواب هذه البلاد وقلاعها، وكشف أخبارهم ونواياهم من حيث طاعتهم للسلطان أو خروجهم[*] عليه[1].

كما أرسل السلطان برسباى[2] شرف الدين بن العجمى[3] عام ٨٣٦هـ/١٤٣٢م إلى قرايلوك[4] عثمان ـ زعيم دولة الشاه البيضاء ـ وذلك لعقد معاهدة[5] الصلح التى طالب بها قرايلوك لحقن الدماء بين الدولتين، وبالفعل تم عقد الهدنة بين الدولتين فى العام ذاته[*][6].

كما أرسل السلطان قايتباى[7] ابن أجا[8] عام ٨٨٠هـ/١٤٧٥م إلى حسن الطويل[9] ـ زعيم دولة الشاه البيضاء ـ، ولم يذكر ابن إياس سبب هذه السفارة ولا القصد منها وإنما

(*) لم تذكر المصادر التاريخية نتائج هذه السفارة وجهود بدر الدين العينى فيها.

(١) العينى «عقد الجمان» ص ٤٠، ابن الصيرفى «نزهة النفوس» ح ٢ ص ٤٦٩، إيمان شكرى «السلطان برقوق مؤسس دولة المماليك الجراكسة من خلال مخطوط عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان لبدر الدين العينى» ص ٢١، مكتبة مدبولة، ط ١ (٢٠٠٢م).

(٢) برسباى: انظر ص ١٠.

(٣) شرف الدين بن العجمى: أبو بكر بن سليمان، تفقه بشيوخ عصره، تولى كتابة السر بحلب، ونيابة كتابة السر بمصر عهد برسباى، توفى ٨٤٤هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ١١ ص ٣٣.

(٤) قرايلوك عثمان: انظر: ص ٨٢.

(*) **المعاهدة**: هى الموادعة والمصالحة والمسالمة، وهى مصالحة أهل الحرب على ترك القتال مدة معينة بعوض أو غيره، ويتولى عقد الصلح الإمام أو نائبه، انظر: أحمد محمد سليمان «أحكام غير المسلمين فى القرآن الكريم» ص٣٦٣ ـ ٣٦٦، دكتوراة، دار العلوم، القاهرة، ٢٠٠٤م.

(٥) لم تذكر المصادر التاريخية جهود العالم شرف الدين بن العجمى لعقد معاهدة الصلح بين الطرفين.

(٦) العينى «عقد الجمان» ص ٤٣٢، ابن تغرى «النجوم الزاهرة» ح ١٤ ص ٢٢٠.

(٧) قايتباى: انظر: ص ٢٢.

(٨) ابن أجا: محمد بن محمود، تفقه على شيوخ عصره، تولى قضاء العسكر بمصر، توفى ٨٨١هـ، انظر: السخاوى «الضوء اللامع» ح ١٠ ص ٤٣.

(٩) حسن الطويل: ملك العراقين، كان ملكًا عاقلًا، كثير الخداع، عادى دولة المماليك عهد قايتباى، وكان الأشرف قايتباى يخاف سطوته، توفى ٨٨٣هـ، انظر: ابن إياس «بدائع الزهور» ح ٣ ص ١٤٨، مكتبة عيسى البابى الحلبى «١٣٨٣هـ/١٩٦٣م».

ذكر فقط عودة ابن أجا من عند حسن الطويل شهر جمادى الأولى من ذات السنة[١] ـ .

ويبدو أن سبب هذه السفارة هو القتال الذى نشب بين الأمير يشبك[٢] وحسن الطويل فى الشهر السابق ـ أى شهر ربيع الآخر ـ ، فقد ذكر ابن إياس أنه حدث خلاف بين حسن الطويل وبين ابنه « اغرلو » فلجأ الابن إلى نائب حلب ، ولمّا دار القتال بين المماليك وقوات حسن الطويل ، فانهزمت قوات المماليك ، ولعله لما بلغ السلطان قايتباى خبر الهزيمة أرسل ابن أجا ليسوى الأمور بينهما ، وعاد ابن أجا من سفارته[٣] ، وأخبر السلطان قايتباى بأن الطاعون قد انتشر فى بلاد حسن الطويل ، وأنه مات من عسكره ما لا يحصى ، وأن أمره قد تلاشى[٤] .

ولقد كان ابن أجا دبلوماسيًا بارعًا ، فقد استطاع الخروج من المأزق الذى زجّه فيه حسن الطويل ، حيث يَذكر ابن أجا أن حسن الطويل قال له ـ فى أول اجتماع معه ـ أنه يحب السلطان قايتباى ويعتبر مملكيتهما مملكة واحدة ، ولذلك فهو يعجب لماذا لم يطلب السلطان قايتباى معونته ضد شاه سوار[٥] ، مع أنه عرض معونته على السلطان قايتباى مرارًا فتجاهله السلطان ولم يُعنى بالرد عليه ، وهنا لم يشأ ابن أجا أن يواجه حسن الطويل بالسبب الحقيقى الذى من أجله أهمل السلطان قايتباى الرد عليه ، وهو أطماع حسن الطويل ببلاد الشام ومحاولة الاستيلاء على بعضها ، إنما أجابه إجابة فيها براعة ، تضمنت الإشادة به وبالسلطان قايتباى فى ذات الوقت ، حيث قال : « مولانا البادشاه ـ لقب السلطان حسن ـ الأمر ما يحتاج إلى هذا ، وسوار أقل من أن يجتمع عسكر مولانا السلطان قايتباى وعسكر البادشاه »[٦] .

---

(١) ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٣ ص ١٠٨.

(٢) ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٣ ص ١٠٨.

(٣) لم توضح المصادر التاريخية ما تم بين ابن أجا والسلطان حسن الطويل.

(٤) ابن إياس « بدائع الزهور » ح ٣ ص ١١٠، ابن شاهين « نيل الأمل » ح ٧ ص ١٤١.

(٥) شاه سوار : انظر : ص ٢٣.

(٦) ابن أجا « تاريخ الأمير يشبك » ص ٨٦، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٨٤م .

كما قام ابن أجار بدور رئيسى فى المفاوضات التى دارت بين الأمير يشبك[١] وبين شاه سوار عام ٨٧٥هـ من أجل حقن الدماء، حيث يذكر ابن أجا أنه عندما طلب شاه سوار الصلح والدخول فى طاعة السلطان قايتباى[٢] «فأرسلنى الأمير يشبك إليه ومعى هدية فى مقابل هديته، وقد رحب شاه سوار بى وأكرمنى، وذلك لأن الأمير يشبك أخبر قاصد شاه سوار ـ الذى كان بعثه لطلب الصلح ـ أنه سيرسل إليه قاضى العسكر وهو والدنا كلنا، واعتمادنا على كلامه، ورضاه رضانا»[٣].

ويسرد لنا ابن أجا الحوار الذى دار بينه وبين شاه سوار «أن شاه سوار عندما قال له أن الأمير يشبك والسلطان قايتباى بغى علينا فقال له ـ ابن أجا ـ أنتم بدأتم بالبغى فإذا قوتلتم بما صدر منكم تقولوا بغيتم علينا، وأنت وأباك وأجدادك من قبلك نواب للسلطنة من قديم الزمان وإلى الآن، وإذا خرجتم عن الطاعة وجب عليه قتالكم، فقال سوار إن الله نصرنا عليكم لبغيكم، فردّ ابن أجا أن هذا ليس صحيح من وجوه، منها أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ يبتلى المؤمنين ليضاعف لهم الأجر، ومنها أن يكون ذلك لسوء تدبير منهم ومخالفة ذوى الأراء، والدليل على ذلك قتلى «أُحد»[٤]، وهنا قال قاضى عسكر شاه سوار هذا كله بتقدير الله، فقال ابن أجا نعم، ولكن سوء التدبير كان سببًا لذلك، لأن العبد له الاختيار الجزئى، ولولا ذلك لما استحق العقاب، فقال سوار والله لو تأخر أخذ القلعة ـ أى قلعة عينتاب[٥] ـ خمسة أيام لكنت نصبت خيامى فى مقابلة خيامكم ورأيت قتالى معكم،

---

(١) يشبك: الأمير يشبك، كان مدبر السلطنة عهد السلطان قايتباى، فقد اجتمعت فيه عدة وظائف كالوزارة، والدوادارية الكبرى، والاستادارية، وكان أميرًا ذا كلمة نافذة، توفى ٨٨٥هـ، انظر: ابن إياس «بدائع الزهور» ح ٣ ص ١٧٠.

(٢) قايتباى: انظر: ص ٢٢.

(٣) ابن أجا «تاريخ الأمير يشبك» ص ٨٧.

(٤) يقصد ابن أجا غزوة أُحد التى حدثت فى عصر النبوة.

(٥) **عينتاب**: مدينة حصينة من أعمال حلب، لها قلعة منقوبة فى الصخر، وهى كثيرة المياه والبساتين، ولها أسواق ضخمة، انظر: أبى الفداء «تقويم البلدان» ص ٢٩٨، البغدادى «مراصد الاطلاع» ح ٢ ص ٩٧٧.

فتبسم ابن أجا وقال له : ذكرت أنك كنت تريد الحضور والقتال لولا أخذ القلعة فهل كنت تقاتل القلعة أو الغريم ؟ فقال : بل الغريم ، فقال ابن أجا الغريم حاضر وليس هناك مانع ، فما سبب تقاعدك ، فسكت شاه سوار ، ثم سأله ابن أجا بشكل مباشر إن كان له رغبة فى الدخول فى طاعة السلطان فقال نعم ، فقال ابن أجا لا يتم ذلك إلا بعد الجلاء عن قلعة سيس[١] ، وهنا أخذ شاه سوار يجادل ويراوغ ، حيث يقول ابن أجا « فحاججته ثم تبين لى إنه لا ينقاد إلى الصواب[٢] .

وهكذا يتضح ـ رغم فشل مفاوضات الصلح ـ البراعة الدبلوماسية لابن أجا وحسن اختيار المماليك لمبعوثيها الدبلوماسيين .

ومن تلك السفارات[*] ـ أيضًا ـ التى قام بها علماء مصر والشام ، ما تذكره المصادر التاريخية من إرسال السلطان فرج بن برقوق[٣] شهاب الدين القاهرى[٤] « ت ٨٠٧هـ » رسولًا إلى تيمورلنك[٥] عام ٨٠٧هـ/١٤٠٤م[٦] ، وإرسال السلطان شيخ[٧] بدر الدين العينى[٨]

---

(١) **سيس** : تقع هذه القلعة بين حلب وبلاد الروم ، وهى خاضعة لحكم المماليك ، وحكمها فى بيت لارد بن مليح الأرمينى ، الذى يعترف بسيادة المماليك على القلعة ، انظر : العمرى « مسالك الأبصار » ص ٦٧.

(٢) ابن أجا « تاريخ الأمير يشبك » ص ٩١.

(*) استقى الباحث تلك المعلومات الواردة فى السفارات من كتب التراجم ، ولقد وردت فى ثنايا تلك الكتب بشكل مقتضب وموجز ، كما لم تذكر الحوليات التاريخية المملوكية شيء عن تلك السفارات أو حتى شيء عن طبيعة العلاقات بين الدولة المملوكية وتلك الدول التى أرسلت إليها السفارة زمن إرسال السفارة .

(٣) فرج بن برقوق : انظر ص ١٥.

(٤) شهاب الدين القاهرى : أحمد بن عدى ، تفقه على شيوخ عصره ، تولى قضاء العسكر بمصر ، درس وأفتى ، توفى ٨٠٧هـ ، انظر : ابن خطيب الناصرية « الدر المنتخب » ح١ ص ٨٥.

(٥) تيمورلنك : انظر : ص ٦٦.

(٦) ابن خطيب الناصرية « الدر المنتخب » ص ٨٥.

(٧) السلطان شيخ : انظر : ص ٣٧.

(٨) بدر الدين العينى : انظر : ص ١٤٦.

« ت ٨٥٥هـ » رسولًا إلى العثمانيين[١] ،[٢] وإرسال السلطان برسباى[٣] شمس الدين الجزرى[٤] « ت ٨٣٣هـ » رسولًا إلى سلطان شيراز[٥] عام ٨٢٧هـ/١٤٢٣م[٦] .

ومن الجدير بالذكر فى ذلك الموضع ـ أيضًا ـ ما أوردته المصادر التاريخية فى ثنايا تراجم علماء مصر والشام ، حيث تذكر من ضمن الولايات التى أسندتها السلطة المملوكية لهؤلاء العلماء ولاية « وظيفة » « نظر أوقاف الأسرى »[٧] ، ويبدو أن موضوع تلك الوظيفة ـ كما يظهر من أسمها ـ إدارة الأوقاف التى يخصص ريعها لفداء الأسرى ، الذين يأسرهم الصليبيون فى غاراتهم على الثغور المصرية والشامية ـ كما سبق القول ـ ، أو يأسرهم التركمان فى غاراتهم على البلاد الشامية ـ كما سبق القول ـ ، وكانت تلك الوظيفة ـ دائمًا ـ تذكر عقب إسناد السلطان المملوكى ولاية قضاء الشافعية[٨] لأحد العلماء ـ سواء بمصر والشام ـ ، مما يعنى أن تلك الوظيفة كانت قاصرة على قاضى الشافعية لا يتولاها سواه ،

---

(١) **العثمانيين** : ينسب العثمانيون إلى إحدى قبائل الغز التركية التى دفعها تقدم المغول إلى الهرب غربًا جنوب الأناضول « آسيا الصغرى » تحت قيادة أرطغرل « ت ٦٨٧هـ/١٢٩٩م » ، انظر : د. عصام شبارو « السلاطين فى المشرق العربى » ص ٧٠، د. شفيق إبراهيم « تاريخ الشرق الإسلامى » ص ١٣١.

(٢) السخاوى « الضوء اللامع » ح ١٠ ص ١٣٢.

(٣) برسباى : انظر : ص ١٠.

(٤) شمس الدين الجزرى : محمد بن محمد ، تفقه على شيوخ عصره ، درس بدمشق ، وعين لقضاء الشافعية بها ، ولكن لم يتم له ذلك ، توفى ٨٣٣هـ ، انظر مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ١٠٩.

(٥) **شيراز** : هى قصبة بلاد فارس ، وهى مدينة عظيمة ، ضيقة الدروب ، طولها ٧٨ درجة ونصف ، وعرضها ٢٩ درجة ونصف ، وتبعد عن نيسابور مسافة ٢٢٠ فرسخ ، انظر : البغدادى « مراصد الاطلاع » ح ٢ ص ٨٢٤، ياقوت الحموى « معجم البلدان » ح ٣ ص ٣٨٠.

(٦) مجير الدين الحنبلى « الأنس الجليل » ح ٢ ص ١٠٩.

(٧) لم تذكر المصادر التاريخية التى تحدثت عن الجهاز الإدارى المملوكى كـ « صبح الأعشى » للقلقشندى ، و « نهاية الأرب » للنويرى ، و « المقصد الرفيع » للخالدى وغيرها ـ تلك الولاية .

(٨) كان الجهاز القضائى فى مصر والشام يأتى على رأسه أربعة من القضاة على المذاهب الفقهية الأربعة « الشافعى ـ الحنفى ـ المالكى ـ الحنبلى » ، وكان القاضى الشافعى أرفعهم قدرًا ، لأن مذهب هذه الدولة الرسمى هو المذهب الشافعى ، انظر : د. سعود محمد « الحياة الثقافية فى دمشق فى عصر المماليك الجراكسة » ص ٣١١.

ومن ذلك ما تذكره المصادر التاريخية أن السلطان جقمق[١] عندما أسند إلى ابن حجر العسقلانى[٢] قضاء الشافعية بمصر عام ٨٤٢هـ/١٤٣٨م، أسند إليه أيضًا ولاية نظر أوقاف الأسرى[٣].

وكذلك ما تذكره المصادر التاريخية أن السلطان شيخ[٤] عندما أسند إلى نجم الدين الحسبانى[٥] قضاء الشافعية بدمشق عام ٨٢٠هـ/١٤١٧م أسند إليه ـ أيضًا ـ ولاية نظر أوقاف الأسرى[٦]، وكذا فعل السلطان جقمق عندما أسند إلى شمس الدين الونائى[٧] قضاء الشافعية بدمشق عام ٨٤٤هـ/١٤٤٠م[٨].

كما تذكر لنا المصادر التاريخية فى هذا الشأن ـ أى فداء الأسرى ـ قيام بعض العلماء ـ الذين وصفتهم المصادر التاريخية بأن لهم كلمة نافذة لدى الصليبيين ـ بفك أسرى المسلمين الذين أسرهم الصليبيون فى غاراتهم على الثغور المصرية والشامية، حيث تذكر المصادر التاريخية أن العالم شمس الدين ابن قديدار[٩] «ت ٨٣٦هـ» أنه كان له كلمة نافذة[*] لدى

---

(١) جقمق: انظر: ص ١١.

(٢) ابن حجر العسقلانى: انظر: ص ١١.

(٣) ابن حجر «إنباء الغمر» ح ٩ ص ٤٢.

(٤) شيخ: انظر ص ٣٧.

(٥) نجم الدين الحسبانى: عمر بن حجى، تفقه بشيوخ عصره، تولى قضاء دمشق إحدى عشر عامًا ـ على فترات متفاوتة، توفى ٨٣٠هـ، انظر: ابن طولون «قضاة دمشق» ص ١٤٣.

(٦) ابن طولون «قضاة دمشق» ص ١٣٥.

(٧) شمس الدين الونائى: محمد بن إسماعيل، تفقه بشيوخ عصره، وصفه برهان الدين البقاعى «ت ٨٨٥هـ» بأنه «بحر من العلوم»، ولى قضاء الشافعية بدمشق ٨٤٣هـ، توفى ٨٤٩هـ، انظر: البقاعى «عنوان الزمان» ح ٢ ص ٤٦٥.

(٨) ابن طولون «قضاة دمشق» ص ١٧٠.

(٩) ابن قديدار: انظر: ص ٨٠.

(*) ذكرت المصادر التاريخية عن ابن قديدار أنه كان كثير المرابطة بثغر بيروت، حيث كان يتصدى لغارات الصليبيين التى كانت تشن من جزيرة قبرص، ولعل ذلك كان علة وجود علاقة بين هذا العالم وملك =

ملك قبرص جينوس[١] « ت ٨٣٥هـ » ، وأنه كان يكاتبه فى شأن أسرى المسلمين لديه فيجيبه بما يريد[٢] .

وكذا كان الأمر بالنسبة للعالم تقى الدين بن عجلون[٣] « ت ٩٢٨هـ » الذى استطاع[*] فك أسرى المسلمين من أهالى طرابلس[٤] عام ٨٨٦هـ/١٤٨١م[٥] .

وهكذا جاهد وناضل علماء مصر والشام لدفع الأخطار الخارجية الرئيسية ـ « المغول ، التركمان ، الصليبيون » ـ التى كانت تهدد أمن المجتمع المصرى والشامىّ ، وذلك حتى يحيا المصريون والشاميون فى أمنٍ وسلام .

ولقد تم تناول ذلك الجهاد والنضال ـ كما صورته المصادر التاريخية ـ فى ثلاث محاور رئيسية ، أولها العلماء والجهاد بالقلم ، حيث صنف العلماء بأقلامهم مُؤلفات تبين للمصريين والشاميين فريضة الجهاد فى سبيل الله ومكانتها فى الإسلام فى ضوء مصادره الأصلية « القرآن ـ السنّة النبوية » ، ولقد كان أهم تلك المؤلفات فى ذلك المجال « مشارع الأشواق

= قبرص ، انظر : المقريزى « درر العقود » ح ٣ ص ٣٤٧، السخاوى « الضوء اللامع » ح ٦ ص ٣٢٧، مجهول « حوليات دمشقية » ص ٦٤، ابن العماد « شذرات الذهب » ح ٧ ص ٢١٨.

(١) جينوس : جينوس بن جاك ، تولى حكم قبرص بعد وفاة أبيه فى حدود عام ٨٠٠هـ إلى أن بعث السلطان برسباى الجيش المملوكى لفتح قبرص ، وتم أسره عام ٨٢٩هـ ، ثم أُفرج عنه مقابل دفع مبلغ من المال ، ثم رحل إلى قبرص ، وتولى الحكم بها حتى وفاته ٨٣٥هـ ، انظر : المقريزى « درر العقود » ح ١ ص ٥٨٢.

(٢) السخاوى « الضوء اللامع » ح ٦ ص ٣٢٧، ابن العماد « شذرات الذهب » ح ٧ ص ٢١٨، السخاوى « وجيز الكلام » ح ٢ ص ٤٨٤، مجهول « حوليات دمشقية » ص ٦٤، ابن تغرى « المنهل الصافى » ح ٩ ص ٣١٠.

(٣) تقى الدين بن عجلون : أبو بكر بن عبد الله ، تفقه بشيوخ عصره ، انتهت إليه مشيخة الإسلام ورئاسة الشافعية بدمشق ، درس بالجامع الأموى بدمشق ، توفى ٩٢٨هـ ، انظر : الغزى « الكواكب السائرة » ح ١ ص ١١٥.

(*) لم تذكر المصادر التاريخية الكيفية التى استطاع بها تقى الدين بن عجلون فك أسرى المسلمين من أهالى طرابلس .

(٤) طرابلس : انظر ص ١٥.

(٥) ابن طولون « مفاكهة الخلان » ص ٤٦.

إلى مصارع العشاق » لابن النحاس المصرى « ت ٨١٤هـ » ، و « غرس الأنشاب فى الرمىّ بالنشاب » للسيوطى « ت ٩١١هـ » ، و « القول التام فى الرمىّ بالسهام » للسخاوى « ت ٩٠٢هـ » .

وثانيها « العلماء والجهاد بالسيف » ، حيث قام علماء مصر والشام بتعبئة المصريين والشاميين للانضمام إلى صفوف الجيش المملوكى لصد تلك الأخطار الخارجية ، والتى كان من أبرزها الخطر المغولى الذى مثلّه تيمورلنك عام ٨٠٣هـ/١٤٠٠م ، وكذا كان الأمر بالنسبة للخطر التركمانى الذى كان يمثله قرايلوك عثمان ـ زعيم دولة الشاه البيضاء ـ ، وقرايوسف ـ زعيم دولة الشاه السوداء ـ ، وشاه سوار ـ زعيم دولة بنى دلغادر ـ .

كما شارك علماء مصر والشام فى العمليات القتالية التى خاضها الجيش المملوكى لصد تلك الأخطار الخارجية ، كما حدث عام ٨٠٣هـ عندما اشترك علماء مصر والشام فى العمليات القتالية التى نشبت بين الجيش المغولى والجيش المملوكى بحلب ودمشق ، وكما حدث بالنسبة للخطر التركمانى عندما شارك علماء مصر والشام فى الحملات العسكرية التى شنتها الدولة المملوكية عام ٨٢٠هـ/١٤١٧م لردع قرايوسف ـ زعيم دولة الشاه السوداء ـ ، كما شاركوا عام ٨٣٦هـ/١٤٣٢م فى الحملات العسكرية التى شنتها الدولة المملوكية لردع قرايلوك ـ زعيم دولة الشاه البيضاء ـ .

أما بالنسبة للخطر الصليبى الذى كان يتمثل فى عمليات تخريب واسعة للموانئ المصرية والشامية لشل الحركة التجارية ، كما حدث بالإسكندرية عام ٨١٤هـ/١٤١١م ، وبيروت وطرابلس عام ٨٠٦هـ/١٤٠٣م ، ولقد تصدى علماء مصر والشام لذلك الخطر من خلال أمرين ، أولهما قيام هؤلاء العلماء بالرباط بالثغور المصرية ـ كثغر دمياط والإسكندرية ـ ، والثغور الشامية ـ كثغر بيروت وصيدا ـ ، وثانيهما الاشتراك فى الحملات العسكرية التى أرسلتها السلطة المملوكية لفتح جزيرتى « قبرص ورودس » ـ اللتان كان ينطلق منهما غارات الصليبيين ـ ، حيث شارك علماء مصر والشام فى الحملات العسكرية الثلاث التى أرسلها السلطان برسباى لفتح قبرص فى ثلاث سنوات متتالية (٨٢٨، ٨٢٩، ٨٣٠هـ/ ١٤٢٤، ١٤٢٥، ١٤٢٦م) ، كما شاركوا فى العمليات التأديبية التى قام بها السلطان جقمق ضد جزيرة رودس فى عام (٨٤٤، ٨٤٧، ٨٤٨هـ/ ١٤٤٠، ١٤٤٣، ١٤٤٤م) .

أمّا المحور الثالث «العلماء والسفارات»، حيث ظهر دور العلماء فى ذلك المجال من خلال أمرين، أولهما تولى علماء مصر والشام رئاسة ديوان الإنشاء، والذى كان من مهامه الرئيسية الإشراف على المكاتبات الرسمية التى ترد إلى السلطان من تختلف الدول، وإعداد الرد عليها، فضلًا عن إعداد الرسائل التى يبعث بها السلطان إلى مختلف رؤساء الدول، أمّا الأمر الثانى فتمثل فى قيام علماء مصر والشام بأعمال ذات صبغة دبلوماسية تهدف إلى حقن الدماء وإخماد الحروب التى كانت تخوضها الدولة المملوكية ضد أعدائها، كما حدث عام ٨٢٣هـ/١٤٢٠م عندما اختار السلطان شيخ العالم بدر الدين العينى ـ كمبعوث خاص ـ للسلطان إلى بلاد بنى قرمان ليأخذ الولاء للسلطان من نواب هذه البلاد، وكشف نواياهم وأخبارهم من حيث طاعتهم للسلطان أو خروجهم عليه، وكما حدث عام ٨٣٦هـ/١٤٣٢م عندما أرسل السلطان برسباى شرف الدين بن العجمى عام ٨٣٦هـ/ ١٤٣٢م إلى قرايلوك عثمان ـ زعيم دولة الشاه البيضاء ـ وذلك لعقد معاهدة الصلح التى طالب بها قرايلوك لحقن الدماء بين الدولتين.

obeikandl.com